أمثال القرآن

* الكتاب:أمثال القرآن
* تأليف: مصطفىٰ ابراهيم
* مراجعة لغوية: قسم التحرير بدار المنتدىٰ
* تصميم الغلاف: قسم الجرافيك بدار المنتدىٰ
* إخراج داخلي: القسم الفني بدار المنتدىٰ
* رقم الإيداع: 4556/ 2023
* الترقيم الدولي: 978-977-8689-4-6

المدير العام: الأستاذ عزيز عثمان

لمراسلة الدار: daralmuntadaa@gmail.com

واتس آب: +20 100 518 6476

فيسبوك: دار المنتدى للنشر والتوزيع

أمثال القرآن

مصطفى ابراهيم

مقدمة في أمثال القرآن

" الحمد لله منزل الكتاب، ومجدي السحاب، وهازم الأحزاب، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده سيدنا محمد وعلى آلة وصحبه ومن والاه ودعا بدعوته إلى يوم الدين.

أما بعد:-

فإن الحقائق السامية في معانيها وأهدافها تأخذ صورتها الرائعة إذا صيغت في قالب حسن يقربها إلى الأفهام بقياسها على المعلوم اليقيني، والتمثيل هو القالب الذي يبرز المعاني في صورة حية تستقر في الأذهان، وذلك مثل تشبيه الغائب بالحاضر، والمعقول بالمحسوس، وقياس النظير على النظير، وكم من معنى جميل أكسبه التمثيل روعة وجمالاً، فكان ذلك أدعى إلى تقبل النفس له، وإقناع العقل به، وهو من أساليب القرآن الكريم في ضروب بيانه ونواحي إعجازه، ومن العلماء من أفرد الأمثال في القرآن بالتأليف، ومنهم من عقد لها بابًا في كتاب من كتبه، فأفردها بالتألف أبو الحسن الماوردي، وعقد لها بابًا السيوطي في كتابه (الإتقان)، وابن القيم في كتاب أعلام الموقعين حيث تتبع أمثال القرآن التي تضمنت تشبيه الشيء بنظيره والتسوية بينهما في الحكم فبلغت بضعة وأربعين مثلًا.

وأخرج البيهقي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " **إن القرآن نزل على خمسة أوجه" حلال، وحرام، ومحكم، ومتشابه، وأمثال فاعملوا بالحلال، واجتنبوا الحرام، واتبعوا المحكم، وآمنوا بالمتشابه، واعتبروا بالأمثال".**

قال الماوردي: من أعظم علم القرآن علم أمثاله، والناس في غفلة عنه لاشتغالهم بالأمثال وإغفالهم الممثلات والمثل بلا ممثل كالفرس بلا لجام، والناقة بلا زمام، وقد عده الشافعي مما يجب على المجتهد معرفة ما ضرب

فيه من الأمثال الدوال على طاعته، المبينة لاجتناب معصيته، وترك الغفلة عن الحفظ والازدياد من نوافل الفضل.

وقال الشيخ عز الدين: إنما ضرب الأمثال في القرآن تذكيرًا ووعظًا، فما اشتبه منها على تفاوت ثواب أو على إحباط عمل، أو على مدح أو ذم أو نحوه، فإنه يدل على الأحكام، وقال غيره: ضرب الأمثال في القرآن يستفاد منه أمور كثيرة: التذكير والوعظ، والحث والزجر، والاعتبار، وتقريب المراد للعقل وتصويره بصورة المحسوس، فإن الأمثال تصور المعاني بصورة الأشخاص لأنها أثبت في الأذهان لاستعانة الذهن فيها بالحواس، ومن ثم كان الغرض من المثل تشبيه الخفي بالجلي، والغائب بالمشاهد، وتأتي أمثال القرآن مشتملة على بيان تفاوت الأجر، وعلى المدح والذم، وعلى الثواب والعقاب، وعلى تفخيم الأمر وتحقيره، وعلى تحقيق أمر أو إبطاله.

الأمثال في القرآن: -

التمثيل: يبرز المعاني في صورة حية تستقر في الاذهان كتشبيه الغائب بالحاضر، والمعقول بالمحسوس فكم من معنى جميل اكسبه التمثيل روعة وجمالا.

فالتمثيل هو القالب الذي يبرز للمتدبر: في صورة حية تستقر في الاذهان، وذلك مثل تشبيه الغائب بالحاضر ، والمعقول بالمحسوس ، وقيام النظير على النظير ، وكم من معنى جميل اكسبه التمثيل روعة وجمالا فكان ذلك ادعى لتقبل النفس له ، واقتناع العقل به ، هو من أساليب القرآن الكريم في ضروب بيانه ونواحي اعجازه.

الأمثال القرآنية عبر وتذكير للمتدبر:-

قد أخبرنا الله تعالى بانه يضرب الأمثال في القرآن الكريم، فقال جل شأنه : {وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُون } (٢٧ الزمر) وقال تعالى {لَوْ أَنْزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۚ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ}(٢١الحشر) وبين هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أخرج البيهقي عن ابي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "**إن القرآن نزل على خمسة أوجه ،حلال ، وحرام ، ومحكم ، ومتشابه ، وأمثال ، فاعملوا بالأمثال."**

قال الماوردي : من أعظم علم القرآن علم أمثاله ، والناس في غفلة عنه لاشتغالهم بالأمثال وإغفاله عن الممثلات ، المثل بلا ممثل كالفارس بلا لجام ، والناقة بلا زمام .

اجتمع في المثل اربعة لا تجتمع في غيره من الكلام: -

- إيجاز اللفظ – إصابة المعنى – حسن التشبيه – جودة الكفاية – فهو نهاية البلاغة

وقال ابن الجوزية: ففي الأمثال ما تأنس النفس به، مما له أثر في سرعة قبولها وانقيادها لما ضرب لها مثله من الحق ، مما لا يجحده احد ولا يذكره ، وكلما ظهرت الامثال ازداد المعنى ظهوراً ووضوحاً فالأمثال شواهد ، والمعنى المراد ، وهي خاصية العقل ولبه وثمرته.

الفوائد من ضرب الأمثال:-

ضرب الأمثال في القرآن يستفاد منه أمور كثيرة منها : التذكير والوعظ، والحث والزجر، والاعتبار والتقرير، وتقريب المراد للعقل وتصويره بصورة المحسوس فإن الأمثال تصور المعاني بصورة الأشخاص لأنها اثبت في الأذهان لاستعانة الذهن فيها بالحواس وفي المثل تشبيه الخفي بالجلي والغائب بالشاهد مما يعين على تقريب المعاني وبيانها الخفي بالجلي والغائب بالمشاهد مما يعني الخفي منها وتأتي امثال القرآن مشتملة على بيان بتفاوت الأجر، وعلى المدح والزم، وعلى الثواب والعقاب، وعلى تفخيم الأمر أو تحقيره، وعلى تحقيق أمر أو إبطاله.

قال تعالى "وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ" (٤٥ ابراهيم). فامتن علينا بذلك لما تضمنه من الفوائد. وقال الزمخشري: التمثيل إنما يصار اليه لكشف المعاني وإدناء المتوهم من الشاهد فإن كان الممثل له عظيم كان الممثل به مثله وإن كان حقيراً كان الممثل به كذلك.

وفي ضرب الامثال تبكيت للخصم الشديد الخصومة وفيه ايضاً من تقرير المقصود بما لا يؤثر وصف الشيء في نفسه ولذلك أكثر الله تعالى في كتابه منها وفشت في كلام النبي صلى الله عليه وسلم وكلام الأنبياء والحكماء.

تعريف الامثال:-

الامثال جمع مثل، والمثل والمثيل كالشبه و الشبه والشبيه لفظ ومعني. والمراد به هنا إيراد المعنى في صورة حسية تكسبه روعة وجمالاً والمثل بهذا المعنى لا يشترط أن يكون له موارد (اي مصدر للمشبه به) كما لا يشترط أن يكون مجازاً مركباً.

واما المثل في الأدب: - هو قول محكي سائر بين الناس يقصد به تشبيه حال الذي حكى فيه بحال الذي قيل لأجله اي يشبه مضربه بمورده (أو مصدر سابق) مثل: (رب رمية من غير رامي) اي : رب إصابة للهدف أو الحق حصل من رام .

شأنه ان يخطئ في معظم امره أو رمية وأول شيء قال هذا الحكم بين يغوث النقري، يضرب للمخطئ يصيب.

الأمثال القرآنية لها صور عديدة:-

وإذا نظرنا الى امثال القرآن التي يذكرها المؤلفون وجدنا انهم يوردون الآيات، المشتملة على تمثيل حال امر بحال امر اخر، سواء اورد هذا التمثيل حال امر بحال امر اخر، سواء اورد هذا التمثيل عن طريق:

اولاً:-

الاستعارة: ومن انواعها:

١- الاستعارة التصريحية:

وهي حذف المشبه به والإتيان بالمشبه، مثال قوله تعالى" الر ۚ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ " {١ابراهيم} (اي من الكفر الى الإيمان).

٢- الاستعارة المكنية:

صورة بيانية يتم فيها تصوير المشبه بشيء متعلق بالمشبه به المحذوف، أو قرينة له او شيء من صفاته.

ومن امثلتها في الاعجاز القرآني البليغ قول الله سبحانه وتعالى " وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا " {١٦٨ الأعراف} فقد شبه تعريف الجماعات في الارض بفصل الأجسام المتماسكة الذي هو تقطيع واستعار الثاني بالأول وجعل الجامع بينهما إزالة الاجتماع وهو داخل في مفهوم الطرفين المشبه والمشبه به (التفريق والتقطيع) ومثل قوله تعالى: " وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ " {٣٧ يس} فإن المستعار منه هو: كشط الجلد عن نحو الشاة، والمستعار له: كشف الضوء عن مكان إلقاء ظلمة الليل فيكون حال النهار حينئذ كحال الشاة تظهر من الجلد وتخرج من الإهاب ويترتب على ذلك ختام الآية "فإذا مبصرون " ولا يترتب عليه "فإذا هم مظلمون".

ثانياً: -

التشبيه: وهو إما أن يكون:

ا- تشبيه صريح: كقوله تعالى " إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ "{ ٢٤يونس } حيث اتى بالمشبه وهو الحياة الدنيا، والمشبه به وهو الماء ومثله قوله تعالى " مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا " {١٧البقرة}

ومثله في الحديث الصحيح، قوله صلى الله عليه وسلم: **إن مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث اصاب ارضاً فكان منها طائفة امسكت الماء فشرب الناس وسقوا وزرعوا وكانت منها طائفة إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، وذلك مثل من فقه في دين الله فنفعه ما بعثني الله به من الهدى والعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به.**

ب- تشبيه غير صريح: وهو التشبيه الضمني، كقوله تعالى " وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ " {٢١ الحجرات} إذ ليس فيه تشبيه صريح فقد حذف المشبه به ولم يذكره.

ثالثاً:-

مالم يشتمل على تشبيه ولا استعارة:

ا- منها قوله تعالى " يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ " {٧٣ الحج}.

فقوله تعالى" إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ " قد سماه الله مثلا وليس فيه استعارة ولا تشبيه.

ب- ومن هذا النوع الثالث ما يسمى الأمثال الكامنة: وهي وإن لم يصرح فيها بلفظ المثل.

ولكنها عبارات تدل على معان رائعة في إيجاز يكون لها وقعا إذا نقلت الى ما يشبهها فإن الله تعالى ابتدأها دون ان يكون لها مصدر (مورد) من قبل، وقد جرت (أو أرسلت) مجرى الامثال على ألسنة الناس (أ، كما يقولون : ذهبت مثلا).

وتسمى أيضاً الامثال المرسلة: -

- ويمثلون بهذا النوع بأمثلة منها:

ما في معنى قولهم (خير الامور أوسطها).

ويستنبط من قوله تعالى: -

" لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ " {٦٨ البقرة } وقوله تعالى: في النفقة :" وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا " {الفرقان٦٧ } .

وقوله تعالى في الصلاة " وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا"} الاسراء ١١٠} وقال تعالى في الانفاق " وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا " {٢٩ الاسراء}

ومن الامثال المرسلة ايضاً:

قوله تعالى على لسان نبيه يعقوب عليه السلام: " قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ۖ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ " يوسف وما أشبه ذلك ، منها قوله تعالى:- " الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ " {يوسف ٥١}

" لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ " {٨٥النجم } - " قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ " {٤١يوسف } " أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ " {٨١ هود } " لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ۚ " {الأنعام ٦٧} - " وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ۚ " { فاطر ٦٧ } .

حكم استخدام الأمثال المرسلة من القران على ألسنة الناس:

قد اختلفوا في حكم استخدام هذا النوع من الامثال المرسلة من آيات القران من الآيات على ألسن الناس في أحاديثهم فمنهم مؤيد ومعارض فمن عارض استخدامه من أهل العلم رآه خروجاً عن أدب القرآن. قال الرازي في تفسير قوله تعالى: " لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ " {الكافرون} :

جرت على عادة الناس بأن يتمثلوا بهذه الآية تعالى ما أنزل القرآن ليتمثل به، بل يتدبر فيه، وثم يعمل بموجبه.

أما من أيده فرأى أنه احرج في ما يظهر ان يتمثل الرجل بالقرآن في مقام الجد، كأن يأسف أسفا شديداً لنزول كارثة قد تقطعت أسباب كشفها عن الناس فيقول {لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ }، أو يحاوره صاحب مذهب فاسد يحاول استهوائه الى باطله فيقول: { لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ } الكافرون ولكن الإثم الكبير في أن يقصد الرجل التظاهر بالبراعة فيتمثل بالقرآن حتى في مقام الهزل والمزاح.

رابعاً:-

المثل قد يراد بها القصة والحال:-

ويطلق المثل على الحال والقصة العجيبة الشأن، وبهذا المعنى فسر لفظ المثل في كثير من الآيات كقوله تعالى " مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ " { محمد ١٥} أي قصتها وصفتها التي يتعجب منها واشار الزمخشري الى هذه المعاني الثلاثة في (كشافه) فقال: (والمثل النظير، قيل للقول السائر الممثل مضربه بمورده مثل)، ثم قال: وقد استعير المثل للحال أو القصة أو الصفة اذا كان لها شأن وفيها غرابة.

أمثال القرآن

المثال الأول

القول في تأويل قوله تعالى:

" مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَّا يُبْصِرُونَ " {البقرة ١٧ }

قال ابو جعفر: فإن قال لنا قائل: وكيف قول (مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً). وقد علمت أنها الهاء والميم (من قوله مثلهم) كناية جماع - من الرجال أو الرجال والنساء –

" والذي " دلالة على واحد من الذكور، فكيف جعل الخبر عن الواحد مثلاً عن الجماعة، وهلا قيل: مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً؟ وإن جاز عندك أن تمثل الجماعة بالواحد، فتجيز لقائل رأى جماعة من الرجال فأعجبته صورهم وتمام خلقهم وأجسامهم أن يقول: كأن هؤلاء دخلة؟ قيل: أما في الموضوع الذي مثل ربنا جل ثناؤه جملة من المنافقين، بالواحد الذي جعله لأفعالهم مثلاً فجائز حسن، وفي نظائره (١) كما قال تعالى، في نظير ذلك " أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ ۚ أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا " {الاحزاب ١٩}

يعني كدوران عين الذي يغشى عليه من الموت – وكقوله تعالى " مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ۗ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ" {لقمان ٢٨ }

بمعنى: إلا كبعث نفس واحدة، وأما في تمثيل أجسام جماعة من الرجال، في الطول وتمام الخلق بالواحدة من النخيل غير جائز.

ولا في نظائره لفرق بينهما فإنما جاز، لأن المراد الخبر عن مثل استفادتهم بما اظهروا بألسنتهم من الإقرار وهم لغيره مستنبطون – من اعتقاداتهم الرديئة، وخلطهم نفاقهم الباطن بالإقرار بالإيمان الظاهر. والاستضاءة.

وإن اختلفت أشخاص أهلها – معنى واحد، لا معان مختلفة. فالمثل له في معنى المثل للشخص الواحد.

من الأشياء المختلفة الأشخاص. وتأويل ذلك: مثل استضاءة المنافقين بما أظهروه من الإقرار بالله وبمحمد صلى الله عليه وسلم وبما جاء به، قولاً وهم مكذبون به اعتقاداً، كمثل استضاءة الموقد ناراً ثم أسقط ذكر الاستضاءة.

المثال الثاني

" أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ ۚ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ" {البقرة ١٩ }

تشبيه حال فريق آخر من المناقين يظهر لهم الحق تارة، ويشكون فيه تارة اخرى، حال يمشون في العراء فينصب عليهم مطر شديد، تصاحبها ظلمات بعضها فوق بعض، مع قصف الرعد، ولمعان البرق، والصواعق المحرقة، التي تجعلهم من شدة الهول يضعون اصابعهم في آذانهم: خوفاً من الهلاك، والله تعالى محيط بالكافرين لا يفوتونه ولا يعجزونه.

" أو" مثلهم: كصيب أي كصاحب مطر وأصله من صيب صاب يصوب أي ينزل من السماء السحاب " فيه " أي السحاب " ظلمات " متكاثفة " ورعد " هو الملك الموكل به وقيل صوته " وبرق " لمعان صوته الذي يزجره به " يجعلون " أي اصحاب الصيب "أصابعهم" أناملهم "في آذانهم من" أجل "الصواعق" شدة صوت الرعد لئلا يسمعوها "حذر" خوف "الموت" من سماعها كذلك هؤلاء : إذ نزل القرآن وفيه الكفر المشبه بالظلمات والوعيد عليه المشبه بالرعد والحجج البينة المشبه بال البرق" يسدون آذانهم لئلا يسمعوه فيميلوا الى الإيمان وترك دينهم وهو عندهم موت "والله محيط بالكافرين" علماً وقدره فلا يفوتونه.

ثم قال تعالى: أو كصيب من السماء" يعني: أو مثلهم كصيب، أي كصاحب صيب من السماء، وهو المطر الذي يصوب أي ينزل بكثرة، "فيه ظلمات" ظلمة الليل، وظلمة السحاب، وظلمات المطر، "ورعد" وهو الصوت الذي يسمع من السحاب "وبرق" وهو الضوء اللامع المشاهد مع السحاب.

المثال الثالث

" إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ " {البقرة ٢٦ }

وعندما ضرب الله مثلا بالبعوضة. استقبله الكفار بالمعنى الدنيوي دون أن يفطنوا للمعنى الحقيقي. قالوا كيف يضرب الله مثلاً بالبعوضة ذلك المخلوق الضعيف. الذي يكفي بأن تضربه بأي شيء فيموت لماذا لم يضرب الله تبارك وتعالى مثلاً بالفيل الذي هو ضخم الجثة شديد القوة بالأسد الذي هو أقوى من الاثنان وضرب لنا مثلاً بالبعوضة فقالوا: (ماذا أراد الله بهذا مثلاً) ولم يفطنوا الى أن هذه البعوضة دقيقة الحجم خلقة معجزة.. لأن في هذا الحجم الدقيق وضع الله سبحانه وتعالى كل الأجهزة اللازمة لها في حياتها فلها عينان ولها خرطوم دقيق جداً، ولكنه يستطيع ان يخترق جلد الانسان ويخرج الأوعية الدموية التي تحت الجلد ليمتص دم الانسان.

والبعوضة لها أرجل ولها اجنحة ولها دورة تناسلية ولها كل ما يلزم لحياتها.. كل هذا في هذا الحجم الدقيق. كلما دق الشيء احتاج الى دقة خلق أكبر.

وهكذا حين ضرب الله مثلاً بالبعوضة وما فوقها أي بما هو أقل منها حجماً.. فإنه تبارك وتعالى أراد ان يلفتنا الى دقة الخلق..

فكلما لطف الشيء وصغر حجمه احتاج الى دقة الخالق.. ولكن الكفار لم يأخذوا المعنى على هذا النحو وإنما اخذوه بالمعنى الدنيوي البسيط الذي لا يمسل الحقيقة. فالله سبحانه وتعالى حينما ضرب هذا المثل.. استقبله المؤمنون بأنه كلام الله.

واستقبلوه بمنطق الايمان بالله فصدقوا به سواء فهموه ام لم يفهموه. لأن المؤمن يصدق كل ما يجيء من عند الله سواء عرف الحكمة أم لم يعلمها. واقرأ قوله تبارك وتعالى " وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥٢) هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ ۚ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ "{ الأعراف ٥٢:٥٣ } إن كل مصدق بالقرآن لا يطلب تأويله او الحكمة في آياته. ولذلك قال الكافرون: " ماذا اراد الله بهذا مثلا " ويأتي رد الحق تبارك وتعالى: " يضل به كثيرا ويهدي به كثيرا وما يضل به الا الفاسقين " ومن هم الفاسقون؟ هم الذين ينقضون عهد الله.. أول شيء في الفسق ان ينقض الفاسق عهده.

المثال الرابع

" وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً ۚ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ " {القرة ١٧١ }

ومثل الصفة والشأن، وأصل المثل بمعنى المثل: النظير والشبيه، ثم أطلق على القول السائر المعروف، لمماثلة مضربة.

وهو الذي يضرب فيه - لمورده – وهو الذي ورد فيه اولا – ولا يكون إلا فيما فيه غرابة ثم استعير للصفة أو الحال أو القصة، إذ كان لها شأن عجيب، وفيها غرابة وينعق من النعيق او الصياح.

يقال: نعق الراعي بالغنم ينعق نعقاً ونعاقاً، صاح بها وزجرها. والدعاء والنداء للبعيد. والظاهر أن المراد بهما نوعان من الأصوات.

أولهما: وهو الدعاء معناه: الصياح بالبهائم لتأتي.

ثانيهما: وهو النداء معناه: الصياح بها لتذهب.

قال الإمام الرازي ما ملخصه: وللعلماء من أهل التأويل في هذه الآية طريقان.

أحدهما: تصحيح المعنى بالإضمار في الآية.

والثاني: إجراء الآية على ظاهرها من غير اضمار. أما الذين أضمروا فذكروا وجوهاً.

الأول: كأنه قال: ومثل من يدعو الذين طفروا الى الحق كمثل الذي ينعق، فصار النعاق الذي هو الراعي بمنزلة الداعي الى الحق والذي هو الرسول صلى الله عليه وسلم وسائر الدعاة الى الحق، وصار الكفار بمنزلة الغنم المنعوق بها ووجه الشبه أن البهيمة تسمع الصوت ولا تفهم المراد.

وهؤلاء الكفار كانوا يسمعون صوت الرسول صلى الله عليه وسلم وألفاظه، وما كانوا ينتفعون بها وبمعانيها.

الثاني: ومثل الذين كفروا في دعائهم آلهتهم من الأوثان كمثل النعاق في دعائه ما لا يسمع كالغنم وما يجري مجراها من البهائم، فشبه الاصنام - في أنها لا تفهم - بهذه البهائم، فإذا كان ولا شك أن من دعي بهيمة عد جاهلاً، فمن دعي حجراً أولى بالذم والفرق بين هذا القول والذي قبله أن ها هنا المحذوف هو الداعي أما اجراء الآية على ظاهرها من غير اضمار فتقديره، ومثل الذين كفروا في قلة عقولهم

في عبادتهم لهذه الأوثان كمثل الراعي إذا تكلم مع البهائم، فكما أنه يقضي على ذلك الراعي بقلة العقل فكذا ها هنا.

ومثل هذا المثل يزيد السامع معرفة بأحوال الكفار، ويحقر الى الكافر نفسه إذا سمع ذلك فيكون كسراً لقلبه، وتضيقاً لصدره، حيث صيره كالبهيمة فيكون في ذلك نهاية الزجر والردع لمن يسمعه عن أن يسلك مثل طريقه في التقليد، وقوله تعالى" صم بكم عمي " زيادة في تبكيتهم وتقريعهم، أي: هم صم عن صدقها وصحتها، فهم لإعراضهم عن الهادي لهم الى ما ينفعهم وينجيهم من العذاب صاروا بمنزلة من فقد حواسه، فأصبح لا يسمع ولا ينطق ولا يبصر.

وقوله: فهم لا يعقلون وارد مورد النتيجة بعد البرهان، بجانب كونه توبيخاً لهم، لأنهم بفقدهم أهم طرق الإدراك وهما السمع والبصر وأهم وسيلة للثقافة وهي استطاع الحقائق من طريق المحاورة والتكلم، صاروا بعد كل ذلك بمنزلة من فقد عقله الاكتسابي.

فأصبح لا يفقه شيئاً لأن العقل الذي يكتسب بـه الإنسـان المعـارف والحقـائق يستعين استعانة كبرى بهذه الحواس الثلاث.

وبعـد هـذا البيـان البليـغ لحـال الـذين يتخـذون مـن دون الله انـداداً ولحـال الكـافرين المقلـدين لآبـائهم فـي الضـلال بـدون تـدبر أو تعقـل، بعـد كـل ذلـك وجهت الصورة الكريمة نداءً الى المؤمنين بينت لهم فيه – وفيما سيأتي بعده من آيات كثيراً من التشريعات والآداب والأحكام التي هم في حاجة إليها.

المثال الخامس

" مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ ۗ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ "

{البقرة ٢٦١ }

القول في تأويل قوله: مثل الذين ينفقون اموالهم في سبيل الله كمثل حبة انبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة" قال ابو جعفر: وهذه الآية مردودة الى قوله: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ ۗ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ " { البقرة ٢٥٤ } هذا بيان للمضاعفة التي ذكرها الله في قوله " من ذا الذي يقرض الل قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافاً كثيرة " وهنا قال: " مثل الذين ينفقوا اموالهم في سبيل الله " أي: في طاعته ومرضاته وأولها انفاقها في الجهاد في سبيله " كمثل حبة انبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة" وهذا احضار لصورة المضاعفة بهذا المثل، الذي كان العبد يشاهده ببصيرة، فيقوي شاهد الايمان مع شاهد العيان. فتقناه النفس مذعة للإنفاق سامعة بها مؤملة لهذه المضاعفة الجزيلة والمنة الجليلة. (والله يضاعف) هذه المضاعفة (لمن يشاء) أي: بحسب حال المنفق واخلاصه وصدقه وبحسب حال النفقة وحلها ونفعها وموقعها، ويحتمل ان يكون (والله يضاعف) أكثر من هذه المضاعفة (لمن يشاء) فيعطيهم أجرهم بغير حساب (والله واسع) الفضل، واسع العطاء، لا ينقصه العطاء على كثرته، ومع هذا فهو (عليم) بمن يستحق هذه المضاعفة ومن لا يستحقها، فيضع المضاعفة في موضعها لكمال علمه وحكمته.

المثال السادس

" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ " {البقرة ٢٦٤ }

المثل المضروب: الذي ينفق ماله رياءً كمثل الحجر الذي عليه تراب أصابه مطر شديد.

نوع المثل: قياسي تشبيهي مركب.

- إبطال الصدقة – حرمان ثوابها.

- (بالمن والأذى): المن – ذكر الصدقة وتعدادها على من تصدق بها عليه على وجه التفضيل عليه، والأذى: التطاول على المتصدق عليه، وإذلاله بالكلمة النابية، أو التي تمس كرامته وتحط من شرفه.

- (رئاء الناس): مراءاه لهم ليكسب محمدتهم، أو يدفع مذمتهم.

(صفوان): حجر أملس (وابل): مطر شديد (صلدا) أملس ليس عليه شيء من التراب (لا يقدرون): يعجزون عن الانتفاع بشيء من صدقاتهم الباطلة.

مازال السياق القرآني في هذا المثل يضع المتلقي في جانب تشجيع المؤمن وحثه على الانفاق، وبيان ضوابطه، فقد كان المثل الذي سبق هذا المثل قد تناول مضاعفة أجر المنفق أضعافاً كثيرة، وهنا مثل من ينفق رياءً وسمعة كصخرة عليها تراب، يظن الرائي لها انها ارض صخرية لا نبت فيها، فقد جعل المثل عبرته من نفس الجنس.

بمعنى: أن الاصل عندما ينزل المطر يحصل الإنبات والخير، ولكن أن ينزل المطر يحصل الإنبات والخير، ولكن أن ينزل المطر فيفضح الحال ويبين ما ستر، فتلك إشارة بليغة. فلا يكفي الإنفاق وحده للقبول والمضاعفة في الأجر، بل يحصل كل ذلك فقط عندما يكون هذا لإنفاق خالصاً لله سبحانه وتعالى؛ ففي (اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أهل الجحيم): وقال الفضيل بن عياض في قوله تعالى: " وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا " { هود ٧ }.

قال: أخلصه وأصوبه، قالوا: يا أبى علي، ما أخلصه وأصوبه؟

قال: إن العمل اذا كان خالصاً ولم يكن خالصاً لم يقبل، حتى يكون لله سبحانه وتعالى، والصواب أن يكون على السنة.

وهذا المثل يحذر كل التحذير عن الرياء، والرياء أصله من الرؤية، وهي نظر الناس للمرء، والراء سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم ((الشرك الأصغر)).

فعن محمود بن لبيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " **إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر، قالوا: وما الشرك الاصغر يا رسول الله؟ قال: الرياء، يقول الله عز وجل لهم يوم القيامة إذا جزي الناس بأعمالهم: اذهبوا الى الذين كنتم تراؤون في الدنيا، فانظروا هل تجدون عندهم جزاء** ".

الرياء المباشر:- هو أن يعمل الفرد عملاً وغرضه ان يراه الناس، فيمدحونه ويثنون عليه، وقد يكون العمل صالحاً في ظاهره كالجهاد أو الصلاة أو الصيام أو الصدقة، ولكن القصد منه الرياء؛

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " **إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليهم رجل استشهد فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت قال: كذبت، ولكنك قاتلت لأن يقال: جريء، فقد قيل، ثم أمر به ف سحب على وجهه حتى القي في النار، ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن، فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن، قال: كذبت، ولكنك تعلمت العلم ليقال: عالم، وقرأت القرآن ليقال: هو قارئ فقد قيل، ثم أمر به ف سحب على وجهه حتى القي في النار، ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله، فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك، قال: كذبت، ولكنك فعلت ليقال: هو جواد، فقد قيل، ثم أمر به ف سحب على وجهه حتى القي في النار**".

الرياء غير المباشر: وهو أن يكون العمل أصله لوجه الله تعالى، ثم تنحرف النية نحو كسب نظر الناس بذلك العمل.

كما جاء في المثل ليلفت النظر الى أولئك المتصدقين الذين ينسفون أعمالهم الصالحة في الصدقات بأنهم يذكرون من تصدقوا عليه بتذكيره في كل مناسبة وحين بأنهم قد تصدقوا عليه يوما ما، أو ربما عادوا في صدقاتهم فاسترجعوها منه؛ عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " **ليس لنا مثل السوء؛ العائد فيه هبته كالكلب يرجع في قيئه**".

واللفظ جاء هنا عاماً للصدقة ولغيرها مما يهب الإنسان من ماله للآخرين، فيكون هو والمراء سواءً في المكان.

المثال السابع

"وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ " {البقرة ٢٦٥ } " وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ ".

أي: يقينًا وتصديقًا (من أنفسهم) بالثواب لا كالمنافق الذي لا يؤمن بالثواب.

(كمثل جنة بربوة) وهي ما ارتفع من الارض وهي أكثر ريعًا من المستقبل (أصابها وابل) وهو المطر. (فآتت). أعطت (أُكلها) . ما يؤكل منها . (ضعفين) أي: حملت في سنة من الريع ما يحمل غيرها في سنتين. (فإن لم يصبها وابل) وهو أشد المطر وأصابها طل وهو المطر الضعيف فتلك حالها في البركة يقول: كما أن هذه الجنة تثمر في كل حال ولا يخيب صاحبها قل المطر أو كثر كذلك يضاعف الله ثواب صدقة المؤمن قلت نفقته أم كثرت.

: قوله تعالى: " ومثل الذين ينفقون اموالهم ابتغاء مرضات الله " أي: طلب رضا الله تبارك وتعالى، وتثبيتًا من أنفسهم، قال قتاده: احتسابًا، وقال الشعبي والكلبي: تصديقًا من أنفسهم، أي: يخرجوا خير لهم ممن تركوا، وقيل: على يقين بإخلاف الله عليهم.

وقال عطاء ومجاهد: يتثبتون أين يضعون أموالهم، قال الحسن: كان الرجل إذا هم بصدقة تثبت، فإن كان لله أمضى، وإن خالطه شك أمسك، وعلى هذا القول يكون التثبيت بمعنى التثبت.

كقوله تعالى:- " وتبتل اليه تبتيلا " { المزمل ٨ } أي: تبتلًا، كمثل جنه، أي: بستان، قال المبرد والفراء: إذا كان فيه كرم فهو فردوس، بربوة، قرأ ابن عامر وعاصم بربوه إلى ربوه المؤمن – ٥٠) في سورة المؤمنون بفتح الراء، وقرأ الآخرون بضمها، وهي المكان المرتفع المستوي الذي تجري فيه الأنهار فلا يعلوه الماء ولا يعالوا عن الماء، وإنما جعلها بربوة لأن النبات عليها أحسن وأزكى، أصابها وابل مطر شديد كثير فآتت أكلها: ثمرها، قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو" رسلنا، ورسلكم، ورسلهم، وسبُلنا " ضعفين، أي: أضعفت في الحمل، قال عطاء: حملت في سنة من الريع ما يحمل غيرها في سنتين. كذلك يُضعف الله صدقة الممن المخلص الذي لا يمن ولا يؤذي بها؛

المثال الثامن

" أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ "

{ البقرة ٢٦٦ }

هذه الآية متصلة بقوله تعالى" يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والاذى"

(قوله: أيود يعني: أيحب أحدكم ان تكون له جنة أي بستان من نخيل وأعناب تجري من تحتها الانهار) (له فيها من كل الثمرات وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء) أولاد صغار ضعاف عجزه (فيه نار فاحترقت) هذا مثل ضربه الله لعمل المنافق والمرائي يقول: عمله في حسنه كحسن الجنة فإذا كبر أو ضعف وصار له أولاد ضعاف وأصاب جنته (إعصار فيه نار فاحترقت) فصار أحوج ما يكون إليها وضعف عن إصلاحها لكبره وضعف أولاده عن إصلاحها لصغرهم ولم يجد هو ما يعود به على أولاده ولا أولاده ما يعودون به عليه فبقوا جميعًا متحيرين عجزة لا حيلة بأيديهم كذلك يبطل الله عمل هذا المنافق والمرائي حين لا مُغيث لهم ولا توبة ولا إقالة. قال عبيد بن عمير: قال عمر رضي الله عنه يومًا لأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم: **فيمن ترون هذه الآية نزلت (أيود أحدكم ان تكون له جنة من نخيل وأعناب) قالوا: فغضب عمر رضى الله عنه فقال: قولوا نعلم أو لا نعلم فقال ابن عباس رضى الله عنهما: في نفسي منها شيءٌ يا امير المؤمنين فقال عمر رضى الله عنه: ابن أخي قل ولا تحقر نفسك قال ابن عباس رضى الله عنهما: ضرب مثلًا لعمل فقال عمر رضى الله عنه: أي عمل؟ فقال ابن عباس رضى الله عنهما: لعمل المرائي.**

قال عمر رضى الله عنه لرجل غني يعمل بطاعة الله بُعث له الشيطان فعمل بالمعاصي حتى أغرق اعماله (كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون) .

المثال التاسع

" الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا ۗ وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا ۚ فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ " { البقرة ٢٧٥ }

(الذين يأكلون الربا). أي: يعاملون به فنبه بالأكل على غيره (لا يقومون). من قبورهم يوم القيمة. (إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان). يصيبه بجنون. (من المس) من الجنون وذلك ان اكل الربا يبعث يوم القيامة مجنوًا . (ذلك). أي: ذلك الذي نزل بهم. (بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا). وهو أن المشركين قالوا: الزيادة على رأس المال بعد محل الدين كالزيادة بالربح في أول البيع فكذبهم الله تعالى:- (واحل الله البيع وحرم الربا فمن جاءه موعظة من ربه) . أي: وعظ (فانتهى). عن أكل الربا. (فله ما سلف). أي: ما أكل من الربا ليس عليه رد ما اخذ قبل النهي. (وأمره الى الله). والله ولي أمره. (ومن عاد) إلى استحلال الربا.

(فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون). أي: الذين يعاملون به، وإنما خص الأكل لأنه معظم المقصود من المال لا يقومون، يعني: يوم القيامة من قبورهم إلا كما يقوم الذي يتخبطه، أي: يصرعه الشيطان، أصل الخبط: الضرب والوطء وهو ضرب على غير استواء يقال: ناقة خبوط للتي تطأ الناس وتضرب الأرض بقوائمها، (من المس)، أي: الجنون يقال: مُس الرجل فهو ممسوس إذا كان مجنونًا ومعناه: أن آكل الربا يبعث يوم القيامة كمثل المصروع، وأخبرنا أبو سعد احمد بن ابراهيم، أخبرنا أبو اسحاق الثعلي، أخبرنا عبد الله بن حام أخبرنا احمد بن محمد بن يوسف، عن ابي هارون العبدي، عن ابي سعيد الخدري رضى الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في قصة الإسراء قال: " فانطلق بي جبريل عليه السلام الى

رجال كثير كل رجل منهم بطنه مثل البيت الضخم منضدين على سابلة آل فرعون وآل فرعون يعرضون على النار غدوًا وعشيًا.

قال: فيقبلون مثل الإبل المنهوكة يخبطون الحجارة والشجر لا يسمعون ولا يعقلون، فإذا أحس بهم أصحاب تلك البطون قاموا، فتميل بهم بطونهم فيصرعون، ثم يقوم أحدهم فيصرع، فلا يستطيعون أن يبرحوا حتى يغشاهم آل فرعون فيطئونهم مقبلين ودبرين فذلك عذابهم في البرزخ بين الدنيا والآخرة.

المثال العاشر

" وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ۚ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ "

{آل عمران ١٠٣ }

أي أن الله أنقذهم من النار لنيتهم الصادقة، بل قد يكون أنقذهم من النار بمحض فضل منه سبحانه وتعالى، فالله تعالى يهدي من يشاء فضلاً، ويضل من يشاء عدلًا، وهو أيضًا سبحانه يوفق من علم فيه الصدق الى فهم حججه وبراهينه، ففي سورة الأنفال " وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ " {الأنفال ٢٣} ، في تفسيرها لو علم فيهم صدقًا وإسلامًا وخيرًا في سابق القضاء وأنهم يصلحون لأسمعهم، أي: لأسمعهم سماع التفهم والقبول.

وأما قوله تعالى: فقد قال ابن كثير في تفسيره: هذا السياق في شأن الأوس والخزرج، فإنه كانت بينهم حروب كثيرة في الجاهلية، وعداوة شديدة وضغائن، طال بسببها قتالهم والوقائع بينهم، فلما جاء الله بالإسلام، فدخل فيه من دخل منهم، صاروا إخوانًا متحابين بحلال الله، متواصلين في ذات الله، متعاونين على البر والتقوى.

قال الله تعالى: " وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ ۚ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ " {الأنفال ٦٢} وكانوا على شفا حفرة من النار بسبب كفرهم، فأبعدهم الله نها، أن هداهم للإيمان. وقد امتن عليهم بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم قسم غنائم حنين، فعتب من عتب منهم لما فضل عليهم في القسمة بما أراه الله، فخطبهم فقال: " يا معشر الأنصار، ألم أجدكم ضُلالًا فهداكم الله بي؟" كلما قال شيئًا قالوا: الله ورسوله أمن.

المثال الحادي عشر

" مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ "

{آل عمران ١١٧}

استئنافٌ بيانيٌ لأن قوله:(لن تغني عنهم أموالهم) يثير سؤال. عن إنفاقهم الأموال في الخير من إغاثة الملهوف وإعطاء الديات في الصلح عن القتلى.

ضرب لأعمالهم المتعلقة بالأموال مثلًا، فشبه هيئة إنفاقهم المعجب ظاهرها المخيب آخرها، حين يحبطها الكفر، بهيئة زرع أصابته ريح باردة فأكلته، تشبيه المعقول بالمحسوس، ولما كان التشبيه تمثيليًا لم يتوج فيه موالاة ما شببه به إنفاقهم لأداة التمثيل، فقيل: كمثل ريح، ولم يقل: كمثل حرث قوم.

والكلام على الريح تقدم عند قوله تعالى: " إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ " {البقرة ١٦٤}. والصِر، أي البرد الشديد المميت لكل زرع، أو ورق يهب عليه فيتركه كالمحترق، ولم يعرف في كلام العرب إطلاق الصِر على الريح الشديد البرد وإنما الصِر اسم البرد، وأما لصرصر فهو الريح الشديدة وقد تكون باردة، ومعنى الآية غني عن التأويل، أن يكون الصِر هنا اسمًا للريح الباردة وجعله مرادف الصرصر. وقد أقره الكاتبون عليه ولم ينكر هذا الإطلاق في الأساس ولا ذكره الراغب.

وفي قوله (فيها صِر) إفادة شدة برد هذا الريح، حتى كان جنس الصِر مظروف فيها، وهي تحمله الى الحرث. والحرث هنا مصدر بمعنى المفعول: أي محروث قوم أي ارضًا محروثة والمراد أصابت زرع حرث.

وتقـدم الكـلام علـى معـاني الحـرث عنـد قولـه تعـالى: " زُيِّـنَ لِلنَّـاسِ حُـبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّـةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ " {آل عمران١٤}

وقولـه "ظلمـوا أنفسـهم" إدمـاج فـي خـلال التمثيـل يكسـب التمثيـل تفظيعًـا وتشويهًا وليس جزءًا من الهيئة المشبه بها. وقد يذكر البلغـاء مـع المشـبه بـه صفات لا يقصدون منها غير التحسين أو التقبيح.

والسامعون عالمون بأن عقاب الأقوام الذين ظلموا أنفسـهم غايـة فـي الشـدة، فـذكر وصـفهم بظلـم انفسـهم لتـذكير السـامعين بـذلك علـى سـبيل الموعظـة، وجيء بقوله (مثل ما ينفقون) غير معطوف على ما قبله لأنه كالبيان لقوله (لن تغني عنهم أموالهم) وقوله (ومال ظلمهم الله ولكن أنفسـهم يظلمـون) الضمائر فيه عائدة على الذين كفروا.

والمعنى أن الله لم يظلمهم حين لم يتقبل نفقاتهم بل هم تسببوا فـي ذلـك، إذ لـم يؤمنـوا لأن الإيمـان جعلـه الله شـرطًا فـي قبـول الأعمـال، فلمـا أعلمهـم بـذلك وأنذرهم لم يكن عقابه بعد ذلك ظلمًا لهم، وفيه إيذان بأن الله لا يخالف وعده من نفي الظلم عن نفسه.

المثال الثاني عشر

" قُلْ أَنَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ " {الانعام ٧١}

فهو وصف دقيق لحال كثر من شباب اليوم إلا من رحم ربي، وما هم فيه من ضياع والحيرة والتخبط، والصراعات النفسية التي يعيشونها، وقد انعكس هذا الحال على اسرهم، وكثرت المشكلات بين الابناء والآباء وتعدى ذلك الى نسيج المجتمع ككل.

إن هذا التعبير القرآني غاية في الدقة في وصف هذه الحالة؛ وكلمة. (استهوته). تعبر عن قوة التأثير في النفس، والجاذبية، والإحاطة بهذه النفس وامتلاكها بهذا الهوى.

والذي يهوي بالنفس مع كل ريح تهب من هنا أو هناك؛ فلا ثبات ولا تعقل ولا رؤية، وهذا ما تقوم به وسائل العصر الحديث؛ بالنشر، والتدخل في كل حياة الانسان، وفي كل وقت وفي كل مكان وقد أصبحت وسائل الإغراء تلك علومًا تدرس، ولها مؤسسات ومسابقات عالمية، يكرم فيها من يتفوق في هذا التفنن بالاستهواء.

إن شياطين الانس يعملون بجانب شياطين الجن سواءً بسواء. وهذا الاستهواء كله يقوم على استثارة الغرائز الطينية في الانسان، وهذا ما جاء في التعبير القرآني: (في الأرض)؛ فهي وسائل رخيصة ودنيئة. ثم يأتي هذا التعبير (حيوان)؛ إنه مشهد حي شاخص متحرك للضلالة والحيرة، والتي تنتاب الإنسان الضائع الاتجاه، فهو مشهد يفيض بالعذاب والتأرجح والقلقلة.

إن هذا العذاب النفسي الذي يرتسم ويتحرك، حتى ليكاد يُحسُ ويُلمس من خلال التعبير القرآني، هو نفسه الذي نشاهده في كثير من الشباب في هذه الآونة، فهل من منقذ لهؤلاء الشباب؟ إن العلاج في القرار الحاسم من هذه الظروف النفسية، التي تتخذ صورة الحيرة الطاغية، والعذاب المرير من هذه الحيرة التي لا تستقر على قرار. هذا قول الله تعالى: " " {قل إن هدى الله هو الهدى} فالقرار هو هدى الله، لأن البشرية ككل تتخبط في التيه، كلما تركت هذا الهدى، أو انحرفت عن شيء منه واستبدلت به شيئًا من تصوراتها هي ومقولاتها، وقيمها وموازينها، بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير.

المثال الثالث عشر

" وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ۚ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۚ فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ " {الاعراف ١٧٦}

مثل الذي أخلد الى الأرض كمثل الكلب.

وهذا حديث عن شخص من بني اسرائيل. قيل إن اسمه بلعم بن باعورا كان يملك الاسم الأعظم. وقيل أنه شخص معاصر للدعوة الإسلامية، كان يعرف الكثير من آيات الله وتعاليمه، ولكن هذا الشخص انحرف عن الخط المستقيم. فلم ينتفع بما يملك من المعرفة.

ولم ينفتح على الآفاق الرحبة العالية التي ترفعه الى الله في عملية سموٍ وطهر وإيمان. بل هوى الى الأرض في حالة انحطاط روحي وفكري، فلم يتطلع إلا الى الأجواء السفلى التي تربط مطامحه بالتراب ولا شيء إلا التراب.

وهذا ما نريد أن نتابعه مع هاتين الآيتين: (واتل عليهم نبأ الذي آتيناه) في ما رزقناه من وسائل المعرفة. فيما يهدي اليه العقل او الوحي (فانسلخ منها) وابتعد عنها في عملية رفض وانحراف؛

(فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين * ولو شئنا لرفعنه بها) لأن الفكر الذي تمثله هو فكر الذري الشماء الذي ينظر الى أعالي الامور ولا يتطلع الى أسفلها، حيث الروحية المنفتحة على الله في آفاق المطلق، (ولكنه أخلد الى الأرض) والتصق بها وأقبل عليها في عبادة وخضوع ونهم الى التراب، والالتصاق بالأرض يعني الانغماس في القيم المادية التي لا تنبض فيها خفقة من قلب، ولهفة من روح، ونبضة من وحي، بل تجتمع فيها كل أنانية النفس الأمارة بالسوء.

وشهوات الباحث ابدًا عن المتعة الحسية، وأطماع الذات التي لا تفكر الا بمطامعها ولو على حساب الآخرين.. وبذلك يسترخي الانسان مع أجواء السعادة الحسية المادية، ويستريح للخطوات اللاهثة وراء الرغبة، ويبتعد رويدًا رويدًا عن كل آفاق الروح الباحثة أبدَا عن المطلق في رحاب الله.

حيث يعيش الانسان إنسانيته في أريحية القيم (واتبع هوا) فجعله القاعدة التي ينطلق منها في كل أقواله، وأعماله وعلاقاته وانتماءاته. وإذا كان الهوى هو القاعدة. فمعنى ذلك أن الضياع هو الافق، وان الرمال المتحركة هي الارض، وان الضباب هو خط الرؤية للحاضر والمستقبل، وبذلك يختلط عليه الحق والباطل. والخير والشر. ويعيش الاهتزاز في الموقف، فلا يسكن الى فكر، ولا يستريح الى موقع. ففي كل يوم هوى يشده إلى طمع ويهوي به إلى الحضيض، وينقله من القم إلى أعماق الهوه في لحظات. إنه المزاج الذي يحرك صاحبه تبعًا للحالات الطارئة فيما تتفتح عنه من الغرائز. وما تستجيب له من شهوات وما تتجه إليه من نزوات وأطماع.

المثال الرابع عشر

" إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ " {يونس ٢٤ }

وقوله تعالى: " إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء " أي التشبيه والتمثيل، لصفة الحياة الدنيا في فنائها وزوالها وقلة خطرها والملاذ بها كماء، أي مثل الماء- أنزلناه من السماء نعت ل(ماء) فاختلط أي فاختلط الماء بالأرض، ثم ابتدأ به نبات الارض أي بالماء نبات الارض.

فأخرجت ألوانًا من النبات، وهكذا الامور بعد زوالها كأنها لم تكن؛ ولهذا جاء في الحديث (**يؤتى بأنعم أهل الدنيا، فيغمس في النا ر غمسة ثم يقال له: هل رأيت خيرًا قط؟ هل مر بك نعم قط؟ فيقول لا. ويؤتى بأشد الناس عذابًا في الدنيا فيغمس في النعيم خمسة، ثم يقال له. هل رأيت بؤساً قط؟ فيقول لا.**

وقال تعالى: إخبارا عن المهلكين " فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا " {هود ٩٥ } ثم قال تعالى: "كذلك نفصل الآيات " أي نبين الحجج والأدلة، "لقوم يتفكرون" فيعتبرون بهذا المثل في زوال الدنيا من أهلها سريعًا مع اغترارهم بها، وتمكنهم بمواعيدها وتفلتها منهم، فإن من طبعها الهرب من طالبها، والطلب لمن هرب منها، وقد ضرب الله مثل الحياة الدنيا بنبات الارض، في سورة الكهف:" وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا " {الكهف ٤٥}

وكذا في سورة الزمر والحديد يضرب بذلك مثل الحياة الدنيا كماء.

وقال ابن جرير: حدثني الحارث حدثنا ابن عبد العزيز، حدثنا ابن عُيينه، عن عمرو بن دينار، عن عبد الرحمن بن ابي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث ب هشام قال: سمعت مروان - يعني: ابن الحكم – يقرأ على المنبر: **وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها وما كان الله ليهلكها الا بذنوب أهلها.**

قال: قد قرأتها وليست في المصحف فقال عباس بن عبد الله بن عباس. فأرسلوا الى ابن عباس فقال: هكذا أقرأني ابي بن كعب. وهذه قراءة غريبة، وكأنها زيادة للتفسير.

المثال الخامس عشر

" ۞ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ " {هود ٢٤ }

ثم - ضرب - سبحانه - مثلًا لفريق الكافرين ولفريق المؤمنين قال: " وقوله: مثل الفريقين. أي حالهم وصفتهم. واصل المثل بمعنى المثل. والمثل: النظير والشبيه ثم أطلق على القول السائر المعروف لمماثلة مضربه- وهو الذي يضرب فيه - لمورد -أي الذي ورد فيه أولاً؛ ولا يكون إلا فيما فيه غرابة. وإنما تضرب الامثال لإيضاح المعنى الخفي، وتقريب المعقول من المحسوس وعرض الغائب في صورة الشاهد. فيكون المعنى الذي ضرب له المثل أوقع في القلوب وأثبت في النفوس والمعنى. حال الفريقين المذكورين قبل ذلك وهما الكافرون والمؤمنون كحال الضدين المختلفين كل الاختلاف أما الكافرون فحالهم وصفتهم كحال وصفة من جمع بين العمى والصم لأنهم مع كونهم يرون ويسمعون لكنهم لم ينتفعوا بذلك فصاروا كالفاقد لهما.

وأما المؤمنون فحالهم وصفتهم كحال وصفة من جمع بين البصر السليم والسمع الواعي لأنهم انتفعوا بما رأوا من دلائل تدل على وحدانية الله وقدرته وبما سمعوا من توجيهات تدل على صحة تعاليم الاسلام. والمقصود من هذا التمثيل. تنبيه الكافرين الى ما هم عليه من ضلال وجهالة لعلهم بهذا التنبيه يتداركون أمرهم، فيدخلوا في دين الاسلام وتثبيت المؤمنين على ما هم عليه من حق وبذلك يزدادون إيمانًا على إيمانهم.

والاستفهام في قوله هل يستويان مثلًا للإنكار والنفي، أي: هل يستوي في الصفة والحال من كان ذا سمع وبصر بمن فقدهما؟ كل إنهما لا يستويان حتى عند أقل العقلاء عقلًا وقوله: (أفلا تذكرون) حض على التذكر والتدبر والتفكر. أي: أتشكون في عدم استواء الفريقين؟ لا إن الشك في عدم

استوائهما لا يليق بعاقل وإنما اللائق به هو اعتقاد تباين صفتيهما والدخول في صفوف المؤمنين الذين عملوا الأعمال الصالحات وأخبتوا إلى ربهم. وبذلك نرى أن هذه الآيات الكريمة قد بينت حال الكافرين وذكرت من أوصافهم أربعة عشر وصفًا أولها: افتراء الكذب وآخرها: الخسران في الآخرة. كما بينت حال المؤمنين وبشرتهم بالخلود في الجنة: ثم ضربت مثلًا لكل فريق وشبهت حاله بما يناسبه من صفات. وفي ذلك ما فيه من الهداية الى الطرق المستقيم، لمن كان له قلب، أو ألقى السمع وهو شهيد. وبعد هذا الحديث المتنوع عن مظاهر قدرة الله ووحدانيتة وعن إعجاز القرآن الكريم وعن حسن عاقبة المؤمنين وسوء عاقبة المكذبين ساقت السورة الكريمة بترتيب حكيم قصص بعض الأنبياء مع أقوامهم وقد استغرق هذا القصص معظم الآيات الباقية فيها فقد حدثتنا عن قصة نوح مع قومه، وعن قصة هود مع قومه، وعن صالح مع قومه، وعن قصة لوط مع قومه.

المثال السادس عشر

" لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ ۖ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ ۚ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ " { الرعد ١٤ } أي: لله وحده (دعوة الحق) وهي: عبادته وحده لا شريك له، وإخلاص دعاء العبادة ودعاء المسألة له تعالى، أي: هو الذي ينبغي أن يصرف له الدعاء، والخوف، والرجاء، والحب، والرغبة، والرهبة، والإنابة؛ لأن ألوهيته هي الحق، وألوهية غيره باطلة (والذين يدعون من دونه) من الاوثان والأنداد التي جعلوها شركاء لله. (لا يستجيبون لهم) أي: لمن يدعوها ويعبدها بشيء قليل ولا كثير لا من أمور الدنيا ولا من أمور الآخرة (إلا كباسط كفيه إلى الماء) الذي لا تناله كفاه لبعده (ليبلغ) يبسط كفيه إلى الماء (فاه) فإنه عطشان ومن شدة عطشه يتناول بيده، ويبسطها إلى الماء الممتنع وصولها إليه، فلا يصل إليه كذلك الكفار الذين يدعون معه آلهة لا يستجيبون لهم بشيء ولا ينفعونهم في أشد الأوقات إليهم حاجة لأنهم فقراء كما أن من دعوهم فقراء، لا يملكون مثقال ذرة في الارض ولا في السماء، وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير.

(وما دعاء الكافرين إلا في ضلال). لبطلان ما يدعون من دون الله، فبطلت عباداتهم ودعاؤهم؛ لأن الوسيلة تبطل ببطلان غايتها، ولما كان الله تعالى هو الملك الحق المبين كانت عبادته حقًا متصلة النفع لصاحبها في الدنيا والآخرة.

وتشبيه دعاء الكافرين لغير الله بالذي يبسط كفيه الى الماء ليبلغ فاه من أحسن الأمثال، فإن ذلك تشبيه بأمر محال، فكما أن هذا محال، فالمشبه به محال. والتعليق على المحال من أبلغ ما يكون في نفي الشيء كما قال تعالى:" إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ " {الأعراف ٤٠}.

المثال السابع عشر

" أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ " { الرعد ١٧ }.

(أنزل) أي: الله عز وجل (من السماء ماء) أي: المطر (فسال) من ذلك الماء (أودية بقدرها) أي: في الصغر والكبر (فاحتمل السيل) الذي حدث من ذلك الماء (زبدًا رابيًا) الزبد: الخبث الذي يظهر على وجه الماء، وكذلك على وجه القدر، (رابيًا) أي: عاليًا مرتفع فوق الماء، فالماء الصافي الباقي هو الحق، والذاهب الزائل الذي يتعلق بالأشجار وجوانب الأودية هو الباطل.

وقيل: قوله (أنزل من السماء ماء) هذا مثل القرآن، والأودية مثل القلوب، يريد: ينزل القرآن فتحمل منه القلوب على قدر اليقين، والعقل، والشك، والجهل. فهذا أحد المثلين، والمثل الآخر: قوله عز وجل:

(ومما يوقدون عليه في النار).

(ابتغاء حلية) أي: لطلب زينة، واراد الذهب والفضة، لأن الحلية تطلب منها (أو متاع) أي: طلب متاع وهو ما ينتفع به، وذلك مثل الحديد، والنحاس، والرصاص، والصفر تذاب فيتخذ الأواني وغيرها مما ينتفع بها (زبد مثله).

(كذلك يضرب الله الحق والباطل) أي؛: إذا أذيب فله أيضا زبد مثل زبد الماء، فالباقي الصافي من هذه الجواهر مثل الحق، والزبد الذي لا ينتفع به مثل الباطل.

(فأما الزبد) الذي يعلو السيل والفلز هوا اسم لجواهر الأرض ومعادنها كلها من الذهب و الفضه و الصفر و النحاس وغيرها، (فيذهب جفاء) أي: طائعًا باطلًا، والجفاء هو ما رمي به الوادي من الزبد، والقدر إلى جنابته. يقال: جفا الوادي وأجفأ: إذا ألقي غثاءه، وأجفأت القدر وجفأت: إذا غلت وألقت زبدها، فإذا سكنت لم يبقى فيها شيء.

معناه: إن الباطل وإن علا في وقت فإنه يضمحل. اي انحل و تلاشي وقيل: (جفاء) أي: متفرقًا. يقال: جفأت الريح الغيم إذا فرقته وذهبت به.

(وأما ما ينفع الناس) يعني: الماء والفلز من الذهب، والفضة والصفر والنحاس.

(فيمكث في الأرض) أي: يبقى ولا يذهب.

(كذلك يضرب الله الحق والباطل) جعل الله تعالى هذا مثلًا للحق والباطل، أي: أن الباطل كالزبد يذهب ويضيع، والحق كالماء والفلز يبقى في القلوب.

وقيل: هذا تسلية للمؤمنين، يعني: أن أمر المشركين كالزبد يرى في الصورة شيئًا وليس له حقيقة، وأمر المؤمنين كالماء المستقر في مكانه له البقاء والثبات.

المثال الثامن عشر

" مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ".{إبراهيم ١٨ }

الآية: تتمثل لحال ما عمله المشركون من الخيرات حيث لم ينتفعوا بها يوم القيامة. وقد أثار هذا التمثيل ما دل عليه الكلام السابق من شدة عذابهم، فيخطر ببالهم أو ببال من يسمع من المسلمين أن يسأل نفسه أن لهم أعمالًا من الصلة والمعروف من إطعام الفقراء، ومن عتق رقاب، وقرى ضيف، وحمالة ديات، وفداء أسارى، واعتماد، ورفادة الحجيج، فهل يجدون ثواب ذلك؟ وأن المسلمين لما علموا أن ذلك لا ينفع الكافرين تطلبت نفوسهم وجه الجمع بين وجود عمل صالح وبين عدم الانتفاع به عند الحاجة إليه، فضُرب هذا المثل لبيان ما يكشف جميع احتمالات. والمثل: الحالة الجيبة، أي حال الذين كفروا العجيبة، أن أعمالهم كرماد.

فالمعنى: حال أعمالهم، بقرينة الجملة المخبر عنها لأنه مهما أطلق مثل كذا إلا والمراد ال أعمال الذين كفروا في حبوطها وذهابها وعدم انتفاعهم بشيء منها في الآخرة، كحال الرماد المكدس الذي أتت عليه الرياح العاصفة، فمحقته وبددته، ومزقته تمزيقًا لا يرجى معه اجتماع.

والآية الكريمة تشبيه بليغ لما يعمله الكافرون في الدنيا من أعمال البر والخير.

ووجه الشبه: الضياع والتفرق وعدم الانتفاع في كل، فكما أن الريح العاصف تجعل الرماد هباء منثورا، فكذلك أعمال الكافرين في الآخرة تصير هباءً منثورًا، لأنها أعمال بنيت على غير أثاث من الإيمان وإخلاص العبادة لله تعالى.

ووصف سبحانه ـ اليوم بأنه عاصف مع أن العصف شدة الريح ـ للمبالغة في وصف زمانها وهو اليوم بذلك، كما يقال: يوم حار ويوم بارد، مع أن الحر والبرد فيهما وليس منهما.

وقوله: (لا يقدرون على شيء مما كسبوا). بيان للمقصود من التشبيه، وهو أن هؤلاء الكافرين، لا يقدرون يوم القيامة، على الانتفاع بشيء مما فعلوه في الدنيا من أفعال البر والخير، لأن كفرهم أحبطها فذهب سدى دون أن يستفيدوا منها ثوابًا، أو تخفف عنهم.

المثال التاسع عشر

" أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ " { إبراهيم ٢٤ }

(ألم تر كيف ضرب الله مثلًا). للفكرة التي تتحرك خارج نطاق الحس بالنموذج المتجسد في دائرة المادة التي يطالها حس الانسان البصري ليكون ضرب المثل أسلوبًا حيًا من أساليب تمثيل الفكرة بطريقة حية موحية.

لأن الناس يتمثلون المحسوسات أكثر مما يتمثلون المعقولات. الأمر الذي يجعل تشبيه مدلول المعقول بالمحسوس سبيلًا لتقديم المعقول إلى الذهن.

وهذا ما درج القرآن استعماله في تقديم أكثر من فكرة في أكثر من موقع، بأوضح الأساليب وأقربها إلى لوعي، بهدف إيصالها.

من هنا استخدمت الآية الكلمة (الطيبة) بأوسع معانيها، في مداليلها الفكرية والعملية لجهة ما يتصل بالعقيدة والشريعة والأخلاق، والنهج العملي لحركة الحياة من حلول الإنسان. للتدليل على ما يريد الله من الناس أن يعيشوه في أفكارهم، وعلاقاتهم ومواقعهم العامة والخاصة.

(كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ). بما يمثل ذلك من عمق في امتداد جذورها في الأرض بمستوى يمنحها القوة والثبات. بحيث لا يمكن لأية ريح أن تقتلعها، مهما كانت قوتها، ومن ارتفاع في حركة نمو الفروع وامتدادها في السماء.

قال ابن بطال (رحمه الله): **والكلمة التي يرفع بها الدرجات ويكتب بها الرضوان هي التي يرفع بها عن المسلم مظلمة، أو يفرج بها عنه كربة، أو ينصر بها مظلومً.**

وقال الآلوسي ما ملخصه: "والمراد" **بالشجرة الطيبة - المشبه بها (النخلة) عند الأكثرين**. وروي ذلك عن ابن عباس وابن مسعود ومجاهد وعكرمة والضحاك وابن زيد.

وأخرج عبد الرزاق والترمذي وغيرهما عن سعيد بن الحجاج قال: **كنا عند أنس، فأتينا بطبق عليه رطب، فقال: أنس لأبي العالية: كل يا أبى العالية، فإن هذا من الشجرة التي ذكرها الله تعالى في كتابه (ألم تر كيف ضرب الله مثلًا كلمة طيبة كشجرة طيبة)**.

وأخرج الترمذي – أيضًا والنسائي وابن حبان والحاكم وصححه عن أنس قال: **أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بقناع من بسر – أي بطبق من تمر لم ينضج بعد فقال:** " مثل كلمة طيبة كشجرة طيبة ".

المثال العشرون

" وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ " { ابراهيم ٢٦ }

في الجانب الآخر من السورة أي خط السلب في الحياة.

حيث الانحراف عن الخط المستقيم، نتيجة بعض الرواسب الذاتية أو الاجتماعية التي تبعد الإنسان عن القيم الروحية والإنسانية.

(ومثل كلمة خبيثة) فيما يتمثل فيها من معاني الكفر والضلال والزيف والنفاق وغير ذلك مما يتصل بالعقائد الفاسدة. والأخلاق الذميمة والخبيثة والصفات السيئة (كشجرة خبيثة). لا يطيب ثمرها، ولا تعطي ظلًا .

(اجتثت من فوق الأرض). أي استؤصلت من سطح الأرض. (مالها من قرار) لأنها لا تملك عمقًا في الأرض، وذلك فإن من الممكن لأي اهتزاز أن يطيح بها ويسقطها.

وهذا هو المثل الحسي للكلمة الخبيثة التي لا تملك في مضمونها ثباتًا قادرًا على تثبيتها في حركة الوقع، لأنها لا تمثل حقيقة، ولا تملك حجة تثبيت موقعها في الفكر الذي يتحرك مع مواقع البرهان، ولا تحقق عمليًا أي نفع للناس وللحياة لتكون منافعها سببًا لامتدادها في حياة الناس. وهكذا ينبغي للناس أن يواجهوا الكلمات في مداليلها الفكرية والشعورية والعملية. وفي تأثيرها على وعي الشخصية الإنسانية المفكرة. وعلى حركة الساحة في الواقع. وعلى عمق النتائج في الحياة. فلا يتوقفوا أمام الأجواء الخيالية أو الضبابية أو السحرية التي تستهوي مشاعرهم بشكل سريع. ولكنها تذوب في دخان الغرائز والشهوات. لأن قيمة الكلمة هي في عمقها وامتدادها وفاعليتها في خط الخير.

المثال الحادي والعشرون

" ۞ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُونَ ۚ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ " { النحل ٧٥ }.

الله تعالى: شبه حال أصنامهم في العجز عن رزقهم بحال مملوك لا يقدر على تصرف في نفسه ولا يملك مالًا.

وشبه شأن الله تعالى: في رزقه إياهم بحال الغني المالك أمر نفسه بما شاء من إنفاق وغيره ومعرفة الحالين المشبهتين يدل عليهما المقام، والمقصود نفي المماثلة بين الحالتين، فكيف يزعمون مماثلة أصنامهم لله تعالى في الإلهية، ولذلك أعقب بجملة (هل يستوون).

والعبد: الإنسان الذي يملكه إنسان آخر بالأسر أو بالشراء أو بالإرث.

وقد وصف (عبدًا) هنا بقول: (مملوكًا) . تأكيدًا للمعنى المقصود وإشعارًا لما في لفظ عبد من معنى المملوكية المقتضية أنه لا يتصرف في عمله تصرف الحرية.

وانتصب (عبدًا) على البدلية من قوله تعالى: (مثلًا) وهو على تقدير مضاف، أي حال بعد، لأن المثل هو الهيئة المنزعة من مجموع هذه الصفات. وجملة (لا يقدر على شيء) صفة (عبدًا)، أي عاجزًا عن كل ما يقدر عليه الناس.

كأن يكون أعمى وزمناً وأصم، بحيث يكون أقل العبيد فائدة. فهذا مثل لأصنامهم، كما قال تعالى:" وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ " {النحل٢٠}.

وقولـه تعـالى:" إِنَّمَـا تَعْبُـدُونَ مِـنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًـا وَتَخْلُقُـونَ إِفْكًـا ۚ إِنَّ الَّـذِينَ تَعْبُـدُونَ مِـنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُـونَ لَكُمْ رِزْقًا فَـابْتَغُوا عِنْـدَ اللَّهِ الـرِّزْقَ وَاعْبُـدُوهُ وَاشْكُرُوا لَـهُ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ" {العنكبوت ١٧}.

(ومن). موصولة ما صدقها حر، بقرينـة أنـه وقـع فـي مقابلـة عبـد مملـوك، وأنه وصف بالرزق الحسن فهو ينفق منه سرًا وجهرًا، أي كيف يشاء. وهذا من تصرفات الأحرار. لأن العبيد لا يملكون رزقًا في عرف العرب. وما حكم تملك العبد مالًا في الإسلام فذلك يرجع إلى أدلة أخرى في أصول الشريعة الإسلامية ولا علاقة لهذه الآية به.

والرزق: هنا اسم للشيء المرزوق به.

والحسن: الذي لا يشوب قبح في نوعه مثل قلة وجدان وقت الحاجة، أو إسراع فساد إليه كسوس البر، أو رداءة كالحشف أي اليابس الفاسد. ووجه الشبه في المعنى الحاصل في حال المشبه به من الحقارة وعدم أهلية التصرف والعجز عن كل عمل، ومن حال الحرية والغنى والتصرف كيف يشاء.

المثال الثاني والعشرون

"وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ " {النحل ٧٦ }.

أما المثال الثاني فهو أشد وضوحًا من سابقه على وحدانية الله تعالى - ورحمته بعباده، وعلى الفرق الشاسع بين المؤمن والكافر، ويتجلى هذا المثال في قوله عز وجل: (وضرب الله مثلًا رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شيء وهو كل على مولاه أينما يوجهه لا يأت بخير). أي: وذكر الله تعالى: مثلًا آخر لرجلين أحدهما أبكم أي: لا يستطيع النطق أو الكلام، ضعيف الفهم والتفهيم لغيره.

(لا يقدر على شيء) أي: لا يقدر على فعل شيء من الأشياء المتعلقة بنفسه أو بغيره. وهو أي هذا الرجل كل على مولاه أي: حمل ثقيل، وهم كبير على مولا الذي يتولى شئونه من طعام وشراب وكساء وغير ذلك. وهذا بيان لعدم قدرته على القيام بمصالح نفسه، بعد بيان عدم قدرته على فعل أي شيء على الإطلاق قال الطبري: قوله (وهو كل على مولاه) أي: ثقل على وليه وقرابته، ووبال على صاحبه، وقد يسمى اليتيم كل لثقله على من يكفله، ومنه قول الشعر: أكول لما الكل قبل شبابه.

إذا كان عظم الكل غير شديد فالكل هو الإنسان العجز الضعيف الذي يكون محتاجًا الى من يرعى شئونه وقوله: (أينما يوجهه لا يأت بخير) أي: أن هذا الرجل حيثما يوجهه مولاه وكافله لقضاء أمر من الأمور يعود خائبًا لعجزه، وضعف حيلته، وقلة إدراكه. فأنت ترى أن الله تعالى - قد وصف هذا الرجل بأربع صفات، تدل على سوء فهمه وقلة حيلته، وثقله على ولي أمره، وانسداد طرق الخير في وجهه. هذا هو الجانب الأول من المثل، أما الجانب الثاني فيتجلى في قوله تعالى - (هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل

وهو علـى صـراط مستقيم) أي: هـذا الرجـل الأبكـم العـاجز. مـع رجـل آخـر (يأمر) غيره بالعد (وهو) أي هذا الرجل الآخـر فـي نفسـه (علـى صـراط مسـتقيم) أي: علـى ديـن قـويم، وخلـق كـريم فقـد جمـع بـذلك بـين فضـيلتين جليلتين: نفعه لغيره، وصلاحه في ذاته. لا شك أن هذين الرجلين لا يستويان فـ يعقل أي عاقل، إذ أن أولهما أبكم عـاجز خـائـب. وثانيهمـا منطـق، ناصـح لغيره، جامع لخصال الخير في نفسه.

ومادام الأمر كذلك فكيف سويتم - أيها المشركون الضالون المكذبون - فـي العبادة بين الله تعالى وهو الخالق لكل شيء وبين تلك الأصنام التـي لا تسـمع ولا تبصـر ولا تغنـي عـن عابـديها شـيئًا أو كيـف سـويتم بـين المـؤمن الجـامع بكل مكرمة، وبين الكـافر الغبـي الأبلـه الـذي آثـر الغنـى علـى الرشـد، فتكـون الآية الكريمة مسوقة لبان الفرق الشاسع بين المؤمن والكافر.

وقـد قابـل - سـبحانه - الأوصــاف الأربعـة للرجـل الأول بهـذين الوصـفين للرجل الثاني، لأن خاص أوصاف الأول أنه غير مستحق لشيء، لكل فضل وخير وقوله (ومن يأمر بالعدل).

المثال الثالث والعشرون

" وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ " {النحل ١١٢}

هذا مثل أُريد به أهل مكة فإنها كانت آمنة مطمئنة مستقرة يتخطف الناس من حولها ومن دخلها كان آمنا كما قال الله تعال " وقالوا إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا أولم نمكن لهم حرمًا آمنًا يجبى إليه ثمرات كل شيء رزقًا من لدنا".

وهكذا قال ههنا " يأتيها رزقها رغدًا " أي هنيئًا سهلًا " من كل مكان فكفرت بأنعم الله" أي جحدت آلاء الله عليها وأعظمها بعثة محمد صلى الله عليه وسلم إليهم.

كما قال تعالى "ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفرًا وأحلوا قومهم دار البوار جهنم يصلونها وبئس القرار" ولهذا بدلهم الله بحاليهم الأولين خلافهما فقال "فأذاقها الله لباس الجوع والخوف" أي ألبسها وأذاقها الجوع بعد أن كان يجبى إليهم ثمرات كل شيء ويأتيها رزقها رغدًا من كل مكان وذلك أنهم استعصوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو إلا خلافه فدعا عليهم بسبع كسبع يوسف.

فأصابتهم سنة أذهبت كل شيء لهم فأكلوا العلهز وهو بر البعير يخلط بدمه إذا نحروه وقوله والخوف وذلك أنهم بدلوا بأمنهم خوفًا من رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه حين هاجروا إلى المدينة من سطوته وسرياه وجيوشه.

المثال الرابع والعشرون

" ۞ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا " {الكهف ٣٢}.

المثل في اللغة: الشبيه والنظير، وهو في عرف القرآن الكريم: الكلام البليغ المشتمل على تشبيه بديع.

وضرب المثل: إيراده، وعبر عن إيراده بالضرب، لشدة ما يحدث عنه من التأثير في نفس السامع. أي: واضرب - أيها الرسول الكريم - مثلًا للمؤمنين الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه، وللكافرين الذين غرتهم الحياة الدنيا.

ليهلك من هلك عن بينة، ويحيا من حي عن بينة. قال الآلوسي: والمراد بالرجلين: إما رجلان مقدران على ما قيل، وضرب المثل لا يقتضي وجودهما. وإما رجلان موجودان وهو المعول عليه فقيل هما رجلان من بني إسرائيل أحدهما كافر والآخر مؤمن.

ثم قال: المراد ضربهما مثلًا للفريقين المؤمنين والكافرين، لا من حيث أحوالهما المستفادة مما ذكر آنفًا، بل من أن المؤمنين في الآخرة كذا، وللكافرين فيها كذا، من حيث عصيان الكفرة مع تقلبهم في نعم الله، وطاعة المؤمنين مع مكابدتهم مشاق الفقر".

أي: واضرب مثلًا من حيثية العصيان مع النعمة، ولم يعين - سبحانه – مكانهما، لأنه لم يتعلق بهذا التعيين غرض.

ثم بين ما اشتملت عليه هاتانا لجنتان من خيرات فقال: من أعناب جمع عنب، والعنبة الحبة منه.

والمراد: من كروم متنوعة. وقوله "وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعًا". بيان لما أضيف إلى الجنتين من مناظر تزيدهما بهجة وفائدة والحف بالشيء الإحاطة به. يقال: فلان حفه القوم أي: أحاطوا به، ومنه قوله – تعالى "وترى الملائكة حافين من حول العرش".

المعنى من ذلك: جعلنا لأحد الرجلين، وهو الكافر منهما جنتين من أعناب، وأحطناهما بنخل ليكون كالحماية النافعة لهما، وجعلنا في وسطهما زرعًا وبذلك تكون الجنتان جامعتين للأقوات والفواكه، مشتملتين على ما من شأنه أن يشرح الصدر، ويفيد الناس.

المثال الخامس والعشرون

" وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا" {الكهف ٤٥}.

قال الإمام الرازي: أعلم أن المقصود: اضرب لهم مثلًا آخر يدل على حقارة الدنيا، وقل بقائها. والكلام متل بما تقدم من قصة المشركين المتكبرين على فقراء المؤمنين. والمعنى:- واذكر لهم - أيها الرسول الكريم - ما يشبه هذه الحياة الدنيا في حسنها ونضارتها، ثم في سرعة زوال هذا الحسن و النضارة، لكي لا يركنوا إليها، ولا يجعلوها أكبر همهم، وقوله: (كماء أنزلناه من السماء). بيان للمثل الذي شبه الله تعالى - به الحياة الدنيا. أن: مثلها في ازدهارها ثم في زوال هذا الازدهار، كهيئة أو كصفة ماء أنزلناه بقدرتنا من السماء، في الوقت الذي نريد إنزاله فيه.

فاختلط به نبات الأرض والاختلاط والخلط: امتزاج شيئين فأكثر بعضهما ببعض. أي: كماء أنزلناه من السماء، فاختلط وامتزج بهذا الماء نبات الأرض، فارتوى منه، فصار قويًا بهيجًا يعجب الناظرين إليه.

وفي التعبير بقوله "فاختلط به نبات الأرض". دون قوله: فاختلط بنبات الأرض إشارة إلى كثرة الماء النازل من السماء، وإلى أنه السبب لأساسي في ظهور هذا النبات وفي بلوغه قوته ونضارته.

وقوله:" فأصبح هشيمًا تذروه الرياح". بيان لما صار إليه هذا النبات من يبوسته وتفتته، بعد اخضراره وشدته وحسنه.

قال القرطبي ما ملخصه: "هشيمًا" أي متكسرًا متفتتًا، يعني بانقطاع الماء منه، فحذف ذلك إيجازًا لدلالة الكلام عليه، والهشم: كسر الشيء اليابس. ورجل هشيم: ضعيف البدن.

يزيد الأسلوب القرآني جمالًا وبلاغة، لأن فاء التعقيب هنا تدل على قصر المدة التي استمر فيها النبات نضرًا جميلًا، ثم صار هشيمًا تذروه الرياح.

ثم ختم – سبحانه – الآية بقوله: "وكان الله على كل شيء مقتدرًا". أي: وكان الله: تعالى وما زال – على كل شيء من الأشياء التي من جملتها الإنشاء والإفناء كامل القدرة، لا يعجزه شيء في الارض ولا في السماء.

المثال السادس والعشرون

" حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ " {الحج ٣١}.

وجملة حنفاء لله وجملة غير مشركين به حالان مؤكدتان لما قبلهما من وجوب اجتناب عبادة الأوثان، واجتناب قول الزور.

أي: اجتنبوا ما امرناكم باجتناب حال كونكم ثابتين على الدين الحق، مخلصين لله العبادة. ثم صور - سبحانه - حال من يشرك بالله تصويرًا تنخلع له القلوب، ويحمل كل على عاقل على اجتناب هذا الرجس فقال: " وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ".

أي: ومن يشرك بالله – تعالى – في عبادته، ومات على ذلك، فكأنما سقط من السماء إلى الأرض، فاختطفته جوارح الطير بسرعة فمزقت أوصاله، أو تسقطه الريح في مكان بعيد أشد البعد بحيث لا يعثر له على أثر.

والمقصود من هذه الجملة تقبيح حال الشرك والمشركين، وبيان أن الوقوع في الشرك يؤدي إلى الهلاك الذي لا نجاة معه بحال، لأن من يسقط من السماء فتتمزق أوصاله، وتتخطفه الطير أو تلقي به الريح في مكان بعيد لا يطمع له في نجاة، بل هو هلاك لا محالة فالجملة الكريمة مقررة لوجوب اجتناب الشرك بأبلغ صورة.

المثال السابع والعشرون

"يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ " {الحج ٧٣}.

والمثل: الشبيه والنظير، ثم أطلق على القول السائر المعروف، لمماثلة مضربه. وهو الذي يضرب فيه – بمورده. وهو الذي ورد فيه أولًا- ولا يكون إلا لما فيه غرابة.

وإنما تضرب الأمثال لإيضاح المعنى الخفي، وتقريب الشيء المعقول من الشيء المحسوس، وعرض الغائب في صورة المشاهد، فيكون المعنى الذي ضرب له المثل أوقع في القلب.

والمعنى: يا أيها الناس قد بينا لكم قصة مستغربة وحالات عجيبة.

لما يعبد من دون الله - تعالى - فاستمعوا إليها بتدبر وتعقل.

وقوله (إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ).

بيان للمثل وتفسيرًا له. والذباب: أم جنس واحد ذبابة. وهي حشرة معروفة بطيشها وضعفها وقذارتها. أي: إن المعبودات الباطلة التي تعبدونها لن تستطيع أن تخلق ذبابة واحدة، حتى لو اشتركت جميعًا في محاولة خلق هذه الذبابة.

وهذا أبلغ ما أنزله الله في تجهيل قريش، واستركاك عقولهم، والشهادة على أن الشيطان قد خزمهم بخزائمه - أي قد ربطهم برباطه.

وحيث وصفوا بالإلهية – التي تقدي الاقتدار على المقدورات كلها – صورًا وتماثيل، يستحيل منها أن تقدر على أقل ما خلقه وأذله وأصغره وأحقره، ولو اجتمعوا لذلك وتساندوا.

وقولــه:- (وَإِن يَسْــلُبْهُمُ الــذُّبَابُ شَــيْئًا لَّا يَسْــتَنقِذُوهُ مِنْــهُ ۚ ضَــعُفَ الطَّالِــبُ وَالْمَطْلُوبُ). بيان لعجز تلك الآلهه الباطلة من أمر آخر سوى الخلق.

قـال القرطبـي: وخـص الـذباب لأربعـة أمـور تخصـه: لمهانتـه وضـعفه، ولاستقذاره وكثرته، فإذا كان هذا الذي هو أضعف الحيوان وأحقره، لا يقد من عبدوه من دون الله – تعالى – على خلق مثله، ودفع أذيتـه، فكيف يجوز أن يكونوا آلهـة معبـودين، واربابًـا مطـاعين، وهذا من أقوى حجـة وأوضح برهان.

المثال الثامن والعشرون

" ۞ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ۖ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ " {النور ٣٥}.

والمعنى: وذلك انه سبحانه نور وحجابه، الذي لولا لطفه، لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه – نور، وبه استنار العرش، والكرسي، والشمس، والقمر والنور، وبه استنارت الجنة وكذلك النور_المعنوي يرجع إلى الله فكتابه نور، وشرعه نور، والإيمان المعرفة في قلوب رسله وعباده المؤمنين نور. فلولا نوره تعالى، لتراكمت الظلمات.

لهذا: كل محل يفقد نوره فثم الظلمة والحصر، مثل نوره الذي يهدى إليه، وهو نور الإيمان والقرآن في قلوب المؤمنين، كمشكاة أي: كوة فيها مصباح لأن الكوة تجمع نور المصباح بحيث لا يتفرق المصباح في زجاجة الزجاجة من صفائها وبهائها كأنها كوكب دري.

أي: مضيء إضاءة الدر، يوقد ذلك المصباح، الذي في تلك الزجاجة الدرية من شجرة مباركة زيتونة أي: يوقد من زيت الزيتون الذي ناره من انور ما يكون لا شرقية فقط، فلا تصيبها الشمس آخر النهار ولا غربية فقط، فلا تصيبها الشمس أول النهار، وإذا انتفى عنها الأمران، كانت متوسطة من الأرض، كزيتون الشام، تصيبها الشمس أول النهار وآخره، فتحسن وتطيب، وتكون أصفى لزيتها، ولهذا قال: يكاد زيتها من صفائه يضيء ولو لم تمسسه نار فإذا مسته النار، أضاء إضاءة بليغة نور على نور أي: نور النار، ونور الزيت.

ووجه هذا المثل الذي ضربه الله، وتطبيقه على حالـة المؤمن، ونـور الله فـي قلبه، أن فطرته التـي فطـر عليهـا، بمنزلـة الزيـت الصـافي، ففطرتـه صـافية، مستعدة التعاليم الإلهية، والعمل المشروع، فـإذا وصـل إليـه العلـم والإيمـان، اشتعل ذلك النور في قلبه.

المثال التاسع والعشرون

" وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ۗ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ " {النور٣٩}.

أي: والذين كفروا بالحق لما جاءهم؛ أعمالهم الصالحة في الدنيا لاتي يتوقعون الخير من ورائها، تكون بالنسبة لهم يوم القيامة، كسراب كائن في صحراء واسعة، "َ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً ". أي : يظن الشخص الذي اشتد به العطش أنه ماء.

وخص سبحانه هذا الحسبان بالظمآن، مع أنك ل من يراه يظنه ماء لأن هذ الذي اشتد به العطش أشد حرصًا على طلبه من غيره، فالتشبيه به أتم وأكمل.

وفي قوله تعالى: "حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا ". غاية لمحذوف، والتقدير: هذا السراب يظنه الظمآن ماء فيسرع نحوه، حتى إذا ما وصل إليه، لم يجد ما حسبه ماء وعلق عليه آماله شيئًا اصلًا، ولا ماء ولا غيره.

فأنت ترى أن الله – تعالى – فشبه ما يعمله الكافرون من أعمال البر في الدنيا، التي يظنوها نافعة لهم – شبه هذه الأعمال من حيث خيبة املهم فيها بسراب يحسبه الظمآن ماء، فيذهب إليه ليروي عطشه، فإذا ما وصل إليه لم يجده شيئًا، فيخيب أمله، وتشتد حسرته. قال الإمام الرازي: فإن قيل: قوله: "حتى إذا جاءه" يدل على كونه شيئًا، وقوله: "لم يجده شيئًا" مناقض له؟ قلنا: الجواب عنه من وجوه ثلاثة: **الأول:** المراد معناه أنه لم يجده شيئًا نافعًا، كما يقال: فلان ما عمل شيئًا وإن كان قد اجتهد.

الثاني: "حتى إذا جاءه" أي: جاء موضع السراب لم يجد السراب شيئًا، فاكتفى بذكر السراب عن ذكر موضعه.

الثالث: الكناية للسراب، لأن السراب يرى من بعيد بسبب الكثافة كأنه ضباب وهباء، وإذا قرب منه رق وانتثر وصار كالهواء، وقوله – سبحانه: "ووجد الله عنده فوفاة حسابه". معطوف على جملة "لم يجده" فهو داخل التشبيه أي: ووجد الظمآن حكم الله – تعالى – وقضاءه فيه عند السراب، فوفاة – سبحانه – حساب الذي يستحقه غير منقوص.

وفي هذه الجملة الكريمة من التصوير المرعب فيها.

حيث شبهته بالظمآن الذي ذهب مسرعًا ليروي ظمأه مما ظنه ماء فلما وصل إليه لم يجده ماء، وإنما وجد الله - تعالى – الذي كفر به وجحد وحدانيته – عنده، فوفاة حسابه الذي يستحق ثم العذاب بدلًا من وجود الماء الذي أتعب نفسه في السعي إليه. "والله" – تعالى – "سريع الحساب" لأنه لا يشغله حساب عن حساب ولا عمل عن عمل، بل حساب الناس جميعًا عنده - عز وجل - كحساب النفس الواحدة.

المثال الثلاثون

" أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ " {النور ٤٠}.

وهذا مثال آخر لأعمال الكافرين التي لا ينتفعون بها مع أنهم يعتقدون أنها ستنفعهم.

فحرف "أو" للتقسم، وما بعده معطوف على قوله سبحانه قبل ذلك "كسراب بقيعة". والمعنى: أو أن الأعمال الحسنة في الدنيا لهؤلاء الكافرين، مثلها – من حيث خلوها عن نور الحق وعن النفع – كمثل "ظلمات" كثيفة " في بحر لجي" أي: عميق الماء كثيرة، من اللج وهو معظم ماء البحر. "ويغشاه موج" أي: هذا البحر اللجي يغطيه ويستره ويعلوه موج عظيم. "من فوقه سحاب" أي: من فوق تل الأمواج الهائلة الشديدة، سحاب كثيف متراكم قائم. "ظلمات بعضها فوق بعض".

أي: هذه الأمواج المتلاطمة، وتحتها البحر العميق المظلم، وفوقها لسحاب الفاتحة الداكنة، وهي ظلمات بعضها فوق بعض "إذا أخرج يده لم يكد يراها" أي: إذا أخرج الواقع في تلك الظلمات يده التي هي جزء منه، لم يكد يراها من شدة تراكم الظلمات. قال الألوسي: "إذا أخرج" أي: من ابتلى بهذه الظلمات "يده" وجعلها بمرأى منه. قريبة من عينيه لينظر إليها "لم يكد يراها" أي: لم يقرب من رؤيتها، وهي أقرب شيء إليه، فضلًا عن أن يراها.

ثم ختم - سبحانه - الآية الكريمة ببيان سنة من سننه التي لا تتخلف فقال: ومن لم يجعل الله له نورًا يهديه إلى الحق والخير، من أي مخلوق كائنا من كان، إذا أن الذي يملك منع النور الهادي إنما هو الله – تعالى – وحده.

قال الإمام ابن كثير عند تفسيره لهاتين الآيتين ما ملخصه: هذان مثلان ضربهما الله – تعالى لنوع الكافر، فأما المثال الأول، فهو للكفار الدعاة إلى كفرهم، الذين يحسبون أنهم على شيء من الأعمال والاعتقادات وليسوا في نفس الأمر على شيء فمثلهم في ذلك كسراب الذي يرى في القيعان الأرض عن بعد كأنه بحر طام.

وهذا المثال مثل لذوي الجهل المركب – أي: الذين يعتقدون الباطل ويزعمون أنه الحق.

والمثل الثاني لأصحاب الجهل البسيط، وهم الأغشام والمقلدون لأئمة الكفر فمثلهم كما قال – تعالى-: "أو كظلمات في بحر لجي".

وبعد أن أورد – سبحانه – هذين المثلين للذين كفروا وأعمالهم، أتبع ذلك ببيان أن الكون كله يسبح بحمد الله – تعالى – وأن الكون كله ف يملكه وقبضته.

وفي سياق اخر نري ان هذا المثل في اعجاز علمي.

لقد كانت البحار عالما مجهولا الى القرن الثامن عشر الميلادي، عندما توفر الأجهزة والتقنيات، وصولا الي ابتكار الغواصات المتطورة وبعد عام ١٩٥٨م أي بعد ثلاثة قرون من البحوث و الدراسات العلمية، وعلي ايدي أجيال متعاقبة من علماء البحار، توصل الانسان الي حقائق مدهشه

ينقسم البحر الي قسمين كبيرين:

أـ البحر السطحي الذي تتخلله طاقة الشمس واشعتها

ب ـ البحر العميق، الذي تتلاشي فيه طاقة الشمس واشعتها

٢: يختلف البحر العميق عن البحر السطحي في الحرارة والكثافة والضغط ودرجه الإضاءة الشمسية و الكائنات التي تعيش في كل منهما ويفصل بينهما موج داخلي

٣:المواج البحرية الداخلية، تغطي الأمواج الداخلية البحر العميق وتمثل حدا فاصلا بين البحر العميق و البحر السطحي سطح البحر ويمثل حدا فاصلا بين الماء و الهواء ولم تكشف الأمواج الداخلية الا في عام ١٩٠٤ ويتروح طول الأمواج الداخلية ما بين عشرات الي مئات الكيلومترات، كما يتراوح ارتفاع معدل هذه الأمواج ما بين ١٠ الي ١٠٠ متر تقريبا

٤: اشتداد الظلام في البحر العميق مع ازدياد عمق البحر حتى يسيطر الظلام الدامس الذي يبدا من عمق ٢٠٠ متر تقريبا، ويبدأ عند هذا العمق المنحدر الحراري الذي يفصل بين المياه السطحية الدافئة ومياه الأعماق الباردة، كما توجد فيه الأمواج الداخلية التي تغطي المياه الباردة، في أعماق البحار، وينعدم الضوء تماما على عمق ١٠٠٠ متر تقريبا. اما فيما يتعلق بانتشار الظلمات في أعماق البحار فقد أدرك صيادو الأسماك ان الضوء يمتص حتي في المياه الصافية، وان قاع البحر المنحدر ذا الرمال البيضاء يتغير لونه بصوره تدريجيه حتي يختفي تماما مع تزايد العمق وان نفاذ الضوء يتناسب عكسيا مع ازدياد العمق.

ظلمات بعضها فوق بعض:

إن الظلام الدامس الذي يشتد من خمسمائة متر الي الف متر يتكون في أعماق البحار نتيجة لظلمات بعضها فوق بعض، وتنشأ لسببين

١: ظلمات الأعماق: يتكون شعاع الشمس من سبعه ألوان الاساسيين

ولكل لون طول موجي خاص به و تتوقف قدره اختراق الشعاع الضوئي للماء على طول موجته، فكلما قصر طول الموج زادت قدره اختراق الشعاع للماء، لذلك فإن شعاع اللون الأحمر يمتص علي عمق ٢٠ مترا تقريبا، ويختفي وجود بعد ذلك، وينشاء عن ذلك ظلمه اللون الأحمر فلو جرح غواص علي عمق ٢٥ متر تقريبا واراد ان يري الدم النازف فسيراه بلون الأسود، بسبب انعدام شعاع اللون الأحمر، ويمتص الشعاع البرتقالي علي عمق ثلاثين مترا تقريبا، فتنشأ ظلمه اخري تحت ظلمه اللون الأحمر هي ظلمه اللون البرتقالي وعلي عمق ٥٠ متر تقريبا يمتص اللون الأصفر، وعلي عمق ١٠٠ متر تقريبا يمتص اللون البنفسجي و النيلي، وآخر الألوان امتصاصا هوا اللون الأزرق علي بعد ٢٠٠ متر تقريبا من سطح البحر وهكذا تتكون ظلمات الألوان لشعاع الشمس بعضها فوق بعض

ظلمه الأمواج الداخلية:

توجد أمواج داخليه تغشي البحر العميق و تغطيه، وتبدأ من عمق ٧٠ متر الي ٢٤٠ متر، وتعلق ملايين من الكائنات الهائمة في البحار علي اسطح الموجات الداخلية، وقد تمتد الموجة الداخلية، وقد تمتد الموجه الداخلية الي سطح البحر فتبدو تلك الكائنات الهائمة كأوساخ متجمعة علي سطح البحر، مما يجعلها تمثل مع ميل الموج الداخلي حائلا لنفاذ الأشعة الي البحر العميق، فتنشأ بذلك الظلمة الثالثة تحت ظلمتي السحب و الموج السطحي.

المثال الواحد والثلاثون

" مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ " {العنكبوت ٤١}.

والمثل والمِثال: النظير والشبيه، ثم أطلق المثل على القول السائر والمعروف، لمماثلة مضربه – وهو الذي يضرب فيه أولًا – ولا يكون إلا فيما فيه غرابة – ثم استعير للصفة أو الحال أو القصة إذا كان لها شأن عجيب، وفيها غرابة.

وعلى هذا المعنى يحمل المثل هنا، وإنما تضرب الأمثال لإيضاح المعنى الخفي، وتقريب الشيء المعقول ممن الشيء المحسوس، وعرض الغائب في صورة الحاضر، فيكون المعنى الذي ضرب له المثل أوقع في القلوب، وأثبت في النفوس. والعنكبوت: حشرة معروفة، تنسج لنفسها في الهواء بيتًا رقيقًا ضعيفًا، لا يغف عنها شيئًا، وتطلق هذه الكلمة على الواحد و الجمع وعلى المذكر والمؤنث والغالب في استعمالها التأنيث والواو والتاء زائدتان، كما في لفظ طاغوت.

والمعنى: حال هؤلاء المشركين الذين اتخذوا من دون الله – تعالى – أصنامًا يعبدونها، ويرجون نفعها وشفاعتها.

كحال العنكبوت في اتخاذها بيتًا ضعيفًا مهلهلًا، لا ينفعها لا في الحر ولا في القر، ولا يرفع عنها شيئًا من الأذى، فالمقصود من المثل تجهيل المشركين وتقريعهم.

حيث عبدوا من دون الله – تعالى – آلهة، هي في ضعفها ووهنها تشبه بيت العنكبوت، وأنهم لو كانوا من ذوي العلم لما عبدوا تلك الآلهة.

الغرض: تشبيه ما اتخذوه متكلًا ومعتمدًا في دينهم، وتولوه من دون الله، بما هو مثل عند الناس في الوهن وضعف القوة، وهو نسج العنكبوت.

ألا ترى إلى مقطع التشبيه، وهو قوله: (وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت). فإن قلت: ما معنى قوله: (لو كانوا يعلمون) وكل أحد يعلم وهن بيت العنكبوت؛ قلت: معناه، لو كانوا يعلمون أن هذا مثلهم وأن أمر دينهم بالغ هذه الغاية من الوهن. قال الآلوسي: قوله: (لو كانوا يعلمون) أي: لو كانوا يعلمون شيئًا من الأشياء، لعلموا أن هذا مثلهم، أو أن أمر دينهم بالغ هذه الغاية من الوهن.

و (لو) شرطية، وجوابها محذوف، وجوز بعضهم كونها للتمني فلا جواب لها، وهو غير ظاهر.

المثال الثاني والثلاثون

" ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ " {الروم ٢٨}.

ومن في قوله – سبحانه-: (ضرب لكم مثلًا من أنفسكم) ابتدائية، والجار المجرور في محل نصب صفة لقوله: (مثلًا). أي: ضرب لكم – أيها الناس – مثلًا، يظهر منه بطلان الشرك ظهورًا واضحًا، وهذا المثل كائن من أحوال أنفسكم، التي هي أقرب شيء لديكم. قال القرطبي: والآية نزلت في كفار قريش، كانوا يقولون في التلبية (لبيك لا شريك لك، إلا شريكًا هو لك، تملكه وما ملك).

وقوله – تعالى: (هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم). تصوير وتفصيل للمثل، والاستفهام والإنكار والنفي. ومن الأولى للتبعيض، الثانية لتأكيد النفي، وقوله شركاء مبتدأ، وخبره لكم وقوله: (من ما ملكت أيمانكم) متعلق بمحذوف، أي: تخافونهم خيفة كائنة مثل خيفتكم من هو من نوعكم.

والمعنى: (ضرب لكم) خطاب للناس. مثلًا منتزعًا من أنفسكم التي هي أقرب شيء إليكم، وبيان هذا المثل: أنكم لا ترضون أن يشارككم في أموالكم التي رزقناكم إياها، عبيدكم وإيماؤكم، مع أنهم مثلكم في البشرية، ونحن الذين خلقناهم كما خلقناكم.

بل إنكم لتخافون على أموالكم منهم، أن يشاركوكم فيها، كما تخافون عليها من الأحرار المشابهين لكم في الحرية وفي جواز التصرف في تلك الأموال.

فـإذا كـان هذا شـأنكم مـع عبيـدكم – الـذين هـم مـثلكم فـي البشـرية، والـذين لـم تخلقوهم بل نحن الذين خلقناكم وخلقناهم – فكيف أجزتم لأنفسكم أن تشركوا مـع الله – تعـالى – آلهـة أخـرى فـي العبـادة مـع أنـه سـبحانه هـو الخـالق لكـم ولـهم، والرازق لهم ولكم؟!!

إن تصرفكم هذا هو ظاهر التناقض والبطلان، لأنكم لم ترضوا أن يشـاركـكم غيركم في أموالكم، ورضيتم أن تشركوا مع الله – تعالـى-: غيره في العبـادة، مع أنـه – سبحانـه – هو الخالق والرازق لكل شيء.

فالمقصـود مـن الآيـة الكريمـة، إبطـال الشـرك بـأبلغ أسـلوب، وأوضـح بيـان، وأصدق حجة، وأقوى دليل.

المثال الثالث والثلاثون

" ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ " {الزمر ٢٩}.

ثم ضرب – سبحانه - مثلًا للعبد المؤمن وللعبد المشرك فقال: (ضرب الله مثلًا رجلًا فيه شركاء متشاكسون ورجلًا سلمًا لرجل).

وقوله مثلً مفعول ثان لضرب، ورجلًا مفعول الأول، وأُخر عن المفعول الثاني للتشويق إليه، وليتصل به ما هو من تتمته، وهو التمثيل لحال الكافر والمؤمن.

وقوله: متشاكسون من التشاكس بمعنى التنازع والتخاصم وسوء الخلق، وقوله: (سلمًا) – مصدر وصف به على سبيل المبالغة. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو "سالمًا" أي: خالصًا لسيده دون أن ينازعه فيه منازع.

والمعنى، إن مثل المشرك الذي يعبد آلهة متعددة، كمثل عبد مملوك لجماعة متشاكسين متنازعين لسوء أخلاقهم وطباعهم، وهذا العبد موزع وممزق بينهم، يلب منه شيئًا يباين ما طلبه الأول.

والثالث يطلب منه شيئًا يناقض مع ما طلبه الأول والثاني. وهو حائر بينهم جميعًا، لا يدري أيطيع ما أمره به الأول أم الثاني أم الثالث.

لأنه لا يملك أن يطيع أهواءهم المتنازعة التي تمزق أفكاره وقواه. هذا هو مثل المشرك في حيرته وضلاله وانتكاس حاله.

أما مثل المؤمن فهو كمثل عبد مملوك لسيد واحد، وخالص لفرد وحد، وليس لغير من سبيل إليه، فهو يخدم سيده بإخلاص وطاعة، لأنه يعرف ما له وما عليه، وفي راحة تامة من الحيرة والمتاعب التي انغمس فيها ذلك العبد الذي يملكه الشركاء المتشاكسون.

فالمقصود بهذين المثلين بيان ما عليه العبد المشرك من ضلال وتحير وتمزق، وما عليه العبد المؤمن من هداية واستقرار واطمئنان.

والمراد: تمثيل حال من يثبت آلهة شتى، ويبقى متحيرًا ضائعًا لا يدري أيهم يعبد، وممن يطلب رزقه؛ فهمه شَعاع – بفتح الشين أي: متفرق – وقلبه أوزاع، وحال من لم يثبت إلا إلهًا واحد، فهو قائم بما كلفه، عارف بما أرضاه وما أسخطه، متفضل عليه في عاجله، مؤمل للثواب في آجله، والاستفهام في قوله (هل يستويان مثلًا). للإنكار والاستبعاد. أي: لا يستوي الرجل الذي سلم لرجل آخر، في رأي أي ناظر، وفي عقل أي عاقل، فالأول في حيرة من أمره والثاني على بينة من شأنه.

المثال الرابع والثلاثون

" وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ " {محمد ٢٠}.

قال الإمام الرازي ما ملخصه: لما بين الله حال المنافق والكافر، والمهتدي المؤمن عند استماع الآيات العلمية، من التوحيد والحشر وغبرها.

أتبع ذلك بيان حالهم في الآيات العملية، فإن المؤمن كان ينتظر ورودها، ويطلب تنزيلها، وإذا تأخر عنه التكليف كان يقول: هلا أمرت بشيء من العبادة.

والمنافق إذا نزلت السورة أو الآية فيها تكليف كره ذلك.

فذكر – سبحانه – تباين حال الفريقين في العلم والعمل. فالمنافق لا يفهم العلم ولا يريد العمل، والمؤمن يلم ويحب العمل. فقوله – تعالى: (ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة). حكاية لتطلع المؤمنين الصادقين إلى نزول القرآن، وتشوقهم إلى الاستماع إليه والعمل بأحكامه. أي: ويقول الذين آمنوا إيمانًا حقًا، لرسوله صلى الله عليه وسلم: يا رسول الله هلا نزلت سورة جديدة من هذا القرآن الكريم، والذي نحبه ونحب العمل بما فيه من هدايات وآداب وأحكام وجهاد في سبيل الله عز – وجل قوله:- (فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرن إليك نظر المغشي عليه من الموت). بيان لموقف المنافقين من الجهاد في سبيل الله، بحيث لا يوجد مجال لتأويل معناها على الوجه الذي سيقت له.

أي: هذا هو حال المؤمنين بالنسبة لحبهم للقرآن الكريم، أما حال المنافقين فإنك تراهم إذا ما أنزلت سورة فاصلة بينة تأمر أمرًا صريحًا بالقتال لإعلاء كلمة الله تراهم ينظرون إليك كنظر من حضره الموت فصار بصره شاخصًا لا يتحرك من شدة الخوف والفزع. والمقصود أنهم يوجهون أبصارهم نحو النبي صلى الله عليه وسلم بحدة وهلع، لشدة كراهتهم للقتال معه، إذ في هذا القتال عز للإسلام، ونصر للمؤمنين والمنافقون يبغضون ذلك. فالآية الكريمة ترسم صورة خالدة بليغة لكل نفس لئيمة خوارة، مبتوتة عن الحياء الذي يستر مخازيها. وقوله: (فأولى لهم) تهديد ووعيد لهم على جبنهم وخبث طويتهم.

المثال الخامس والثلاثون

" مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ۚ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ۖ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا " {الفتح ٢٩}.

وقوله: (محمد رسول الله) فيه أسمى التكريم للرسول صلى الله عليه وسلم حيث شهد له ـ سبحانه ـ بهذه الصفة، وكفى بشهادته ـ عز وجل ـ شهادة، وحيث قدم الحديث عنه بأنه أرسله بالهدى ودين الحق، ثم أخر اسمه الشريف على سبيل التنويه بفضله، والتشويق إلى اسمه، وفي وصف أصحابه بأنهم أشداء على الكفار رحماء بينهم، مدح عظيم لهم.

وجمع من الوصفين على سبيل الاحتراس، فهم ليسوا أشداء مطلقًا، ولا رحماء مطلقًا، وإنما شدتهم على أعدائهم، ورحمتهم لإخوانهم في العقيدة، وشبيه بهذه الآية قوله ـ تعالى ـ (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ).

وأسمى من هذا كله في بيان تراحمهم، قوله ـ تعالى(وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ) ثم وصفهم بوصف آخر فقال: (تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ۖ). أي: تراهم وتشاهدهم أيها العاقل ـ راكعين ساجدين محافظين على الصلاة ولا يريدون من وراء ذلك إلا التقرب إلى الله ـ تعالى ـ والظفر برضاه وثوابه.

ثم وصفهم بوصف ثالث فقال: (سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ). أى: علامتهم وهو نور يجعله الله - تعالى - في وجوههم يوم القيامة، وحسن سمت يعلو وجوههم وجباههم في الدنيا، من أثر كثرة سجودهم وطاعتهم لله رب العالمين فالمقصود بهذه الجملة أن الوضاءة والإشراق والصفاء. يعلو وجوههم من كثرة العبادة والصلاة لله، وليس المقصود أن هناك علامة معينة - كالنكتة التي تكون في الوجه - كما قد يتبادر إلى بعض الأذهان. واختار - سبحانه - لفظ السجود لأنه يمثل أعلى درجات العبودية والإخلاص لله - تعالى.

قال الآلوسي: "أخرج ابن مردويه بسند حسن عن أبي بن كعب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "في قوله تعالى: سيماهم في وجوههم من أثر السجود النور يوم القيامة". ثم قال الآلوسي: ولا يبعد أن يكون النور علامة على وجوههم في الدنيا والآخرة - للآثار السابقة - لكنه لما كان في الآخرة أظهر وأتم خصه النبي صلى الله عليه وسلم بالذكر.

واسم الإشارة في قوله - تعالى - (ذلك مثلهم في التوراة) يعود إلى جميع أوصافهم الجليلة السابقة. والمثل هو الصفة العجيبة والقصة ذات الشأن. أي: ذلك الذي ذكرناه عن هؤلاء المؤمنين الصادقين من صفات كريمة تجري مجرى الأمثال، صفتهم في التوراة التي أنزلها الله - تعالى - على نبيه موسى - عليه السلام. ثم بين سبحانه - صفتهم في الإنجيل فقال: (ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع).

وقوله: (ومثلهم في الإنجيل) معطوف على ما قبله وهو مثلهم في التوراة؛

والإنجيل: هو الكتاب الذي أنزله الله - تعالى - على نبيه عيسى عليه السلام.

والشط: فروع الزرع ، وهو ما خرج منه وتفرع على شاطئيه، أي: على جانبيه.

وجمعه: أشطاء، وشطوء يقال: شطأ الزرع وأشطأ، إذا أخرج فروعه التي تتولد عن الأصل.

وقوله فآزره أي: فقوت تلك الفروع أصولها، وآزرتها، وجعلتها مكينة ثابتة في الأرض ـ وأصله من شدة الأزر.

تقول: أزرب فلانًا، شددت إزاره عليه. وتقول آزرت البناء ـ بالمد والقصر ـ إذا قويت أساسه وقواعده.

وعلى هذا التفسير الذي سرنا عليه يكون وصفهم في التوارة، هو المعبر عنه بقوله ـ تعالى ـ : (أشداء على الكفار رحماء بينهم). ويكون وصفهم في الإنجيل وهو المعبر عنه بقوله ـ سبحانه ـ: (كزرع أخرج شطأه). ولا شك أن هذه الأوصاف كانت موجودة في الكتابين قبل أن يحرفا ويبدلا، بل بعض هذه الأوصاف موجودة في الكتابين حتى بعد تحريفهما.

المثال السادس والثلاثون

اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا ۖ وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ ۚ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ) {الحديد ٢٠}

أي: اعْلَمُوا- أيها المؤمنون علم استجابة وامتثال لما آمركم به- أَنَّمَا الْحَياةُ الدُّنْيا التي تعيشون فيها ما شاء الله لكم أن تعيشوا.

لَعِبٌ واللعب: هو قضاء الوقت في قول أو فعل لا فائدة من ورائه.

وَلَهْوٌ واللهو: اسم لفعل أو قول يقصد من ورائه التلذذ والتمتع، وصرف الآلام والهموم عن النفس.

"وَزِينَةٌ" الزينة اسم لما يتزين به الإنسان من ملبس أو مسكن أو ما يشبههما مما يفعله من أجل أن يكون في أعين الناس مهيبا جميلا.

"وَتَفاخُرٌ بَيْنَكُمْ" أي: وتفاخر فيما بينكم بالأموال والمناصب والأحساب والأعمال.

وتكاثر في الأموال والأولاد، والتكاثر تفاعل من الكثرة- كما أن التفاخر تفاعل من الفخر- وصيغة التفاعل جيء بها هنا، للمبالغة في إظهار ما يتفاخرون به، وما يتكاثرون فيه، حتى لكأنه ينافس غيره في ذلك ويريد الظهور عليه.

والحرص على التفاخر والتكاثر في الأموال والأولاد، من طبيعة كثير من الناس، كما قال- تعالى-: أَلْهاكُمُ التَّكاثُرُ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقابِرَ.

ثم بين- سبحانه- حال الحياة الدنيا، التي يلعب الناس فيها، ويلهون ويتفاخرون.

ويتكاثرون.

فقال: كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَباتُهُ.

أي: هذه الحياة الدنيا حالها وصفتها ومثلها كمثل مطر أعجب الكفار وراقهم وسرهم، ما ترتب على هذا المطر، من نبات جميل نبت من الأرض بعد هطول الغيث عليها.

فقوله- تعالى-: كَمَثَلِ خبر لمبتدأ محذوف، أي: مثلها كمثل مطر.

والمراد بالكفار هنا: الجاحدون لنعم الله- تعالى- الساترون لها، وخصوا بالذكر، لأنهم أشد إعجابا وسرورا وانغماسا في زينة الحياة الدنيا من غيرهم.

وروى عن عبد الله بن مسعود- رضى الله عنه- أن المراد بالكفار هنا: الزراع الذين يزرعون الأرض بعد نزول المطر عليها، ويبذرون فيها البذور سموا كفارا من الكفر بمعنى الستر والإخفاء، يقال: كفر الزارع بذره أو زرعه إذا أخفاه في الأرض، حتى لا يتعرض للتلف أو الضياع.

وقوله- سبحانه-: ثُمَّ يَهِيجُ فَتَراهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطاماً.

والهيجان: الاضطراب والثوران، ومنه سميت الحرب بالهيجاء، لأن فيها يضطرب المقاتلون، ويثور بعضهم على بعض.

ويرى بعضهم أن معنى يَهِيجُ هنا: ييبس ويجف.

وعطف- سبحانه- جملة يَهِيجُ بحرف ثُمَّ لإفادة التراخي الرتبي، إذ أن وصول النبات إلى درجة من الهيجان وبلوغ منتهاه، لا يتأتى إلا بعد زمن طويل من بدء زراعته.

ولم يرتض بعض المحققين هذا المعنى فقال: تفسير يَهِيجُ بيبس فيه تسامح، فإن حقيقته أن يتحرك إلى أقصى ما يتأتى له.

أي: من الطول والغلظ.

أي: ثم يتحرك هذا النبات الذي أعجب الكفار إلى أقصى ما يتأتى له من طول وقوة، ثم يبدأ في الضعف.

فتراه- أيها الناظر إليه- نباتا مصفرا متغيرا عما كان عليه من النضرة، آخذا في الذبول وفي التهيؤ للحصاد، ثم يكون بعد ذلك حطاما، أى: نباتا محطما مكسرا.

والمقصود بقوله- تعالى- كَمَثَلِ غَيْثٍ.

التقرير والتأكيد لما وصفت به الدنيا من كونها لعبا ولهوا وزينة.

وتشبيهها في سرعة زوالها، وانقضاء نعيمها، وقلة فائدتها.

بحال نبات ظهر على الأرض بعد هطول المطر عليها، واستمر في ظهوره وجماله ونضرته وهيجانه، لفترة مّا من الحياة، أعجب خلالها الكفار به، ثم حل بهذا النبات اليانع الاصفرار والاضمحلال حتى صار حطاما مفتتاً تذروه الرياح.

والمقصود بهذا التشبيه، زجر الناس عن الركون إلى الحياة الدنيا ركونا ينسون معه فرائض الله- تعالى- وتكاليفه التي كلفهم بها- سبحانه.-

وعطف- سبحانه-: فَتَراهُ مُصْفَرًّا بالفاء للإشعار بقصر المسافة، مهما طالت في عرف الناس- بين نضرة الزرع واستوائه، وبين اصفراره ونهايته.

قال صاحب الكشاف- رحمه الله-: أراد- سبحانه- أن الدنيا ليست إلا محقرات من الأمور، وهي اللعب واللهو.

وأما الآخرة فما هي إلا أمور عظام.

وشبه حال الدنيا بسرعة تقضّيها، مع قلة جدواها، بنبات أنبته الغيث فاستوى واكتمل، وأعجب به الكفار الجاحدون لنعمة الله، فيما رزقهم من الغيث، والنبات.

فبعث عليه العاهة فهاج واصفر وصار حطاما.

ثم ختم- سبحانه- الآية الكريمة ببيان عظم الآخرة، وهوان الدنيا فقال: وَفِي الْآخِرَةِ عَذابٌ شَدِيدٌ أي: لمن كفر بالله- تعالى- وفسق عن أمره.

وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوانٌ أي: لمن آمن بالله- تعالى- واتبع ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم وحافظ على أداء ما كلف به بإخلاص وحسن اقتداء.

وَمَا الْحَياةُ الدُّنْيا إِلَّا مَتاعُ الْغُرُورِ أي: وما أحوال الحياة الدنيا وما اشتملت عليه من شهوات، إلا متاع زائل، لا يقدم عليه، ولا يتشبع به إلا من خدع بزخرفه، واغتر بمظهره.

فالمراد بالغرور: الخديعة، مصدر غره.

أي: خدعه وأطمعه بالباطل.

المثال السابع والثلاثون

(كَمَثَلِ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ۖ ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)
{صوره الحشر ١٥}
ثم ساق- سبحانه- مثلين زيادة في تثبيت المؤمنين، وفي التهوين من شأن أعدائهم فقال- تعالى-: كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيباً ذاقُوا وَبالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ.
وقوله: كَمَثَلِ
. خبر لمبتدأ محذوف.
والمراد بالذين من قبلهم: يهود بنى قينقاع، وكفار قريش الذين حل بهم ما حل من هزائم في غزوة بدر
. والوبال: المرعى الضار الذي ترعاه الماشية، دون أن تدرك سوء عاقبته.
أي: مثل هؤلاء اليهود والمنافقين، وحالهم العجيبة.
كمثل الذين من قبلهم، وهم يهود بنى قينقاع، الذين أخرجوا من المدينة بسبب غدرهم، وكان خروجهم قبل خروج بنى النضير بزمن ليس بالطويل، وكمثل مشركي قريش الذين حلت بهم الهزيمة في غزوة بدر، فإن هؤلاء وهؤلاء قد ذاقوا في الدنيا سوء عاقبة كفرهم بدون إمهال.
أما في الآخرة فلهم عذاب شديد الألم والإهانة.
ووجه الشبه بين السابقين واللاحقين، أن الجميع قد اغتروا بمالهم وقوتهم، فتطاولوا على المؤمنين، ونقضوا عهودهم معهم.
فكانت عاقبتهم جميعا أن أذلهم الله- تعالى- في الدنيا، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى.

المثال الثامن والثلاثون

"كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ" {سوره الحشر: ١٦}

وأما المثل الثاني فيتجلى في قوله- تعالى-: كَمَثَلِ الشَّيْطانِ إِذْ قالَ لِلْإِنْسانِ اكْفُرْ، فَلَمَّا كَفَرَ قالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ.
أي: مثل المنافقين في تزيينهم الشر والفساد ليهود بنى النضير.
كمثل الشيطان إذ قال للإنسان في الدنيا اكفر بالله- تعالى- فلما كفر ذلك الإنسان ومات على الكفر، وبعث يوم القيامة، ووجد مصيره السيئ.
ندم وألقى التبعة على الشيطان الذي قال له: إني بريء منك ومن كفرك، إني أخاف الله رب العالمين، ووجه الشبه: أن المنافقين تبرأوا من معاونتهم ومن مناصرتهم.
عند ما حانت ساعة الجد
كما يتبرأ الشيطان من كفر الكافر يوم القيامة.
ومن الآيات التي وردت في هذا المعنى قوله- تعالى-: وَقالَ الشَّيْطانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ، وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ، وَما كانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي، فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ ما أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَما أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ.

المثال التاسع والثلاثون

" مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ۚ بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ" {سوره الجمعة ٥}

والمراد بالمثل في قوله- تعالى-: مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْراةَ.

الصفة والحال.

والمراد بالذين حملوا التوراة: اليهود الذين كلفهم الله- تعالى- بالعمل بما اشتملت عليه التوراة من هدايات وأحكام وآداب.

ولكنهم نبذوها وتركوا العمل بها.

والأسفار: جمع سفر، وهو الكتاب الكبير المشتمل على ألوان من العلم النافع، وسمى بذلك لأنه يسفر ويكشف عما فيه من المعاني المفيدة للمطلع عليها.

والمعنى: حال هؤلاء اليهود الذين أنزل الله- تعالى- عليهم التوراة لهدايتهم.

ولكنهم لم ينتفعوا بها.

كحال الحمار الذي يحمل كتب العلم النافع، ولكنه لم يستفد من ذلك شيئا، لأنه لا يفقه شيئا مما يحمله.

ففي هذا المثل شبه الله- تعالى- اليهود الذين لم ينتفعوا بالتوراة التي فيها الهداية والنور، بحال الحمار الذين يحمل كتب العلوم النافعة دون أن يستفيد بها.

ووجه الشبه بين الاثنين: هو عدم الانتفاع بما من شأنه أن ينتفع به انتفاعا عظيما، لسمو قيمته، وجلال منزلته.

قال صاحب الكشاف: شبه اليهود في أنهم حملة التوراة وقراؤها وحفاظ ما فيها، ثم إنهم غير عاملين بها، ولا بمنتفعين بآياتها.

بالحمار، حمل أسفارا، أي: كتبا كبارا من كتب العلم، فهو يمشى بها، ولا يدرى منها إلا ما يمر بجنبيه وظهره من الكد والتعب، وكل من علم ولم يعمل بعلمه فهذا مثله، وبئس المثل.

وقال الإمام ابن كثير: يقول- تعالى- ذامّا لليهود الذين أعطوا التوراة فلم يعملوا بها، إن مثلهم في ذلك كمثل الحمار يحمل أسفارا.

فهو يحملها حملا حسيا ولا يدري ما عليه، وكذلك هؤلاء.

لم يعملوا بمقتضى ما في التوراة بل أولوه وحرفوه، فهم أسوأ من الحمار، لأن الحمار لا فهم له، وهؤلاء لهم فهوم لم يستعملوها، ولهذا قال- تعالى-: في آية أخرى: أُولئِكَ كَالْأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ، أُولئِكَ هُمُ الْغافِلُونَ.

وقال القرطبي: وفي هذا المثل تنبيه من الله- تعالى- لمن حمل الكتاب، أن يتعلم معانيه، ويعمل بما فيه، لئلا يلحقه من الذم ما لحق هؤلاء اليهود.

- سبحانه- عن تكليفهم العمل بالتوراة وعن تركهم لذلك بقوله: حُمِّلُوا التَّوْراةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوها للإشعار بأن هذا التكليف منه- تعالى- لهم، كان عهدا مؤكدا عليهم، حتى لكأنهم تحملوه كما يتحمل الإنسان شيئا قد وضع فوق ظهره أو كتفيه.

ولكنهم نبذوا هذا العهد، وألقوا بما فوق أكتافهم من أحمال، وانقادوا لأهوائهم وشهواتهم انقياد الأعمى لقائده.

ولفظ «ثم» في قوله ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوها للتراخي النسبي، لأن عدم وفائهم بما عهد إليهم، أشد عجبا من تحملهم لهذه العهود.

وشبههم، بالحمار الذي هو مثل في البلادة والغباء، لزيادة التشنيع عليهم، والتقبيح لحالهم، حيث زهدوا وأعرضوا عن الانتفاع بأثمن شيء نافع، - وهو كتاب الله- كما هو شأن الحمار الذي لا يفرق فيما يحمله على ظهره بين الشيء النافع والشيء الضار.

وجملة «يحمل أسفارا» في موضع الحال من الحمار، أو في موضع جر على أنها صفة للحمار، باعتبار أن المقصود به الجنس، فهو معرفة لفظا، نكرة معنى.

ثم أضاف- سبحانه- إلى ذم هؤلاء اليهود ذما آخر فقال: بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِ اللَّهِ.

وبِئْسَ فعل ذم، وفاعله ما بعده وهو قوله: مَثَلُ الْقَوْمِ وقد أغنى هذا الفاعل عن ذكر المخصوص بالذم، لحصول العلم بأن المذموم هو حال هؤلاء القوم الذين وصفهم- سبحانه- بأنهم قد كذبوا بآياته.

أى: بئس المثل مثل هؤلاء القوم الذين كذبوا بآيات الله- تعالى- الدالة على وحدانيته وقدرته، وعلى صدق أنبيائه فيما يبلغونه عنه- تعالى.-

وقوله: وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ تذييل قصد به بيان الأسباب التي أدت إلى عدم توفيق الله- تعالى- لهم إلى الهداية.

أي: والله- تعالى- قد اقتضت حكمته، أن لا يهدى إلى طريق الخير، من ظلم نفسه، بأن آثر الغي على الرشد، والعمى على الهدى، والشقاوة على السعادة، لسوء استعداده، وانطماس بصيرته.

المثال الأربعون

" ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ" {سورة التحريم: ١٠}

:جعل الله- تعالى- مثلا لحال الكافرين، وأنه لا يغنى أحد عن أحد امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ عليهما السلام

وعدى الفعل ضَرَبَ باللام، للإشعار بأن هذا المثل إنما سيق من أجل أن يعتبر به الذين كفروا، وأن يقلعوا عن جهالاتهم التي جعلتهم يعتقدون أن أصنامهم ستشفع لهم يوم القيامة.

وقوله- تعالى-: كانَتا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبادِنا صالِحَيْنِ فَخانَتاهُما

بيان لحال هاتين المرأتين، ولما قامتا به من أفعال شائنة، تتنافى مع صلتهما بهذين النبيين الكريمين

والمراد بالتحتية هنا: كونهما زوجين لهذين النبيين الكريمين، وتحت عصمتهما وصيانتهما، وأشد الناس التصاقا بهما.

وقال- سبحانه- "كانَتا تَحْتَ عَبْدَيْنِ"

للتعظيم، أي: كانتا في عصمة نبيين لهما من سمو المنزلة ما لهما عند الله- تعالى-

ووصفهما- سبحانه- بالصلاح، مع أنهما نبيان والنبوة أعظم هبة من الله لعبد من عباده- للتنويه بشأن الصالحين من الناس، حتى يحرصوا على هذه الصفة، ويتمسكوا بها، فقد مدح الله- تعالى- من هذه صفته في آيات كثيرة، منها قوله- تعالى-: "وَبَشَّرْناهُ بِإِسْحاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ".

وخيانة امرأة نوح له، كانت عن طريق إفشاء أسراره، وقولها لقومه: إنه مجنون.

وخيانة امرأة لوط له، كانت عن طريق إرشاد قومه إلى ضيوفه.

مع استمرار هاتين المرأتين على كفرهما

قال الإمام ابن كثير: قوله: فَخانَتاهُما أي: في الإيمان، لم يوافقاهما على الإيمان، ولا صدقاهما في الرسالة.

وليس المراد بقوله: فَخانَتاهُما في فاحشة، بل في الدين، فإن نساء الأنبياء معصومات عن الوقوع في الفاحشة

وعن ابن عباس: قال: ما زنتا، أما امرأة نوح، فكانت تخبر أنه مجنون، وأما خيانة امرأة لوط، فكانت تدل على قومها على أضيافه.

وفي رواية عنه قال: كانت خيانتهما أن امرأة نوح، كانت تفشى سره، فإذا آمن مع نوح أحد أخبرت الجبابرة من قوم نوح به، وأما امرأة لوط، فكانت إذا أضاف لوط أحدا، أخبرت به أهل المدينة ممن يعمل السوء.

وقوله- تعالى-: فَلَمْ يُغْنِيا عَنْهُما مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ بيان لما أصابهما من سوء العاقبة بسبب خيانتهما.

أي: أن نوحا ولوطا- عليهما السلام- مع جلالة قدرهما، لم يستطيعا أن يدفعا شيئا من العذاب عن زوجتيهما الخائنتين لهما، وإنما قيل لهاتين المرأتين عند موتهما.

أو يوم القيامة، ادخلا النار مع سائر الداخلين من الكفرة الفجرة.

وقوله شَيْئاً منصوب على أنه مفعول مطلق لقوله: يُغْنِيا، وجاء منكرا للتقليل والتحقير، أي: فلم يغنيا عنهما شيئا من الإغناء حتى ولو كان قليلا

وقوله: مَعَ الدَّاخِلِينَ بعد قوله: ادْخُلَا النَّارَ لزيادة تبكيتهما، ولتأكيد مساواتهما في العذاب مع غيرهما من الكافرين الخائنين الذين لا صلة لهما بالأنبياء من حيث القرابة أو ما يشبهها.

المثال الواحد والأربعون

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) {سورة التحريم: ١١}

ثم ضرب- سبحانه- مثلا للمؤمنين فقال: وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ وهي آسية ابنة مزاحم، التي لم يمنعها ظلام الكفر الذي كانت تعيش فيه في بيت فرعون، ولم يشغلها ما كانت فيه من متاع الحياة الدنيا وزينتها.

عن أن تطلب الحق، وتعرض عن الباطل، وأن تكفر بكل ما يدعيه زوجها من كذب وطغيان.

قال الجمل: آمنت بموسى- عليه السلام- لما غلب السحرة، وتبين لها أنه على الحق.

ولم تضرها الوصلة بالكافر، وهي الزوجية التي هي من أعظم الوصل ولا نفعه إيمانها، لأن كل امرئ بما كسب رهين.

وروى الشيخان عن أبى موسى الأشعري أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ": كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا أربع: مريم ابنة عمران، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد صلى الله عليه وسلم وآسية بنت مزاحم، امرأة فرعون.

قيل: إنها إسرائيلية وأنها عمة موسى.

وقيل إنها ابنة عم فرعون.

ومن فضائلها أنها اختارت القتل على الملك، وعذاب الدنيا على النعيم الذي كانت فيه- بعد أن خالط الإيمان قلبها.

أي: وجعل الله- تعالى- حال امرأة فرعون، مثلا للمؤمنين، حيث آمنت بالحق بعد أن تبين لها، دون أن يصرفها عن ذلك أي صارف، فكان ما فعلته في أسمى درجات الإخلاص وصدق اليقين.

والظرف في قوله: إِذْ قالَتْ.

متعلق بمحذوف، أو بقوله: مَثَلًا.

أي: وضرب الله- تعالى- مثلا للذين آمنوا، حال امرأة فرعون وقت أن قالت رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ أي: ابن لي بيتا في مستقر رحمتك، أو في جنتك التي لا يستطيع أحد التصرف فيها إلا بإذنك.

وقوله: فِي الْجَنَّةِ بدل أو عطف بيان لقوله- تعالى- عِنْدَكَ وقدم عندك، للإشعار بأن محبتها للقرب من رحمته- تعالى- أهم من أي شيء آخر.

وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ أي: ونجنى من طغيان فرعون، ومن عمله الذي بلغ النهاية في السوء والقبح.

وَنَجِّنِي- أيضا- من القوم الظالمين، وهم أتباع فرعون وحاشيته وملؤه، وشيعته.

وفي هذا الدعاء أسمى ألوان الأدب، فهي تسأل الله- تعالى- أن يعوضها عن دار فرعون، دارا في أعلى درجات الجنة وهذا الدعاء يشعر بأن فرعون وقومه، قد صدوها عن الإيمان، وهددوها بأنها إن آمنت.

حرموها من قصر فرعون، وزينته وفخامته.

كما أنها سألت ربها- عز وجل- أن ينجيها من ذات فرعون، ومن عمله السيئ، ومن كل من حام حول فرعون، واتبعه في طغيانه وكفره.

(ثبت المصادر و المراجعة)

١ :الامثال في القرآن: بن القيم

٢ :أيسر التفسير/ ابو بكر الجزائري

٣ :اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفه أصحاب الجحيم / ابن تيميه

٤ :صحيح البخاري، كتاب الصوم باب : الريان للصائمين ج ٢ ص ٦٧١ حديث ١٧٩٨

٥ مستند احمد بن حنبل/ احمد بن حنبل؛ ج ٣٩ ص ٣٩ حديث ٢٣٦٣

٦ :صحيح مسلم باب من قاتل للرياء و السمعه ج ٦ ص ٤٧ حديث ٥٠٣٢

٧ :الأدب المفرد / البخاري ص ١٥٠ حديث ٤١٧

٨ :تفسير السعدي / تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان

٩ :تفسير الوسيط : للقرآن الكريم/ للدكتور محمد سيد طنطاوي

١٠ : الوجيز في تفسير الكتاب العزيز / للواحدي

١١ :الزمخشري/ صاحب الكشاف في تفسر القرآن

١٢: تفسير الماوردي : النكت و العيون / ابو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري البغدادي

المحتويات